قِصَّةُ أَصْحَابِ الجَنَّةِ وَقِيْمَةِ النِيَّةِ فِي الشَّرِيْعَةِ الإِسْلامِيَّةِ

تــأليــف

د /ياسين بن ناصر الخطيب

الأستاذ المشارك بقسم القضاء بجامعة أم القرى

صفحه أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

صفحه أبيض

الملخص

اشتمل موضوع قصة أصحاب الجنة على أن الله تعالى قص علينا هذه القصة للموعظة والعبرة، وأن على الإنسان ألا يمنع حق الفقراء والمساكين في ماله، وبين البحث أن أهل مكة كانوا على علم بهذه القصة، وتبين أن أصحاب الجنة كانوا في الفترة بين عيسى ونبينا محمد ﷺ وأن الجنة كانت في أرض اليمن، وأن أولاد صاحب الجنة خالفوا سيرة أبيهم في إكرام الفقراء والمساكين وإعطائهم حقهم مما آتاهم الله تعالى.

كما بين البحث أن الفقهاء وفقهاء الحديث يجعلون للنية الأثر العظيم على العمل صلاحاً وفساداً إذا صاحبها عزم وتصميم، ودلل على ذلك بالأحاديث الكثيرة الصحيحة في هذا الأمر وبين البحث أن أصحاب الجنة لم يكونوا مجرد ناوين بل إنهم باشروا العمل وأقسموا ألا يدخلنها عليهم مسكين وساروا إلى جنتهم يتخافتون.

وبين البحث مثالين للنية وجزائها: فذكر الأعراب الذين أنفقوا ولكن منهم من أنفق وهم يرون أن هذه النفقة مغرماً ويتربص بالمؤمنين الدوائر، ومنهم الذين أنفقوا وهم يريدون أن تكون نفقاتهم عند الله وصلوات الرسول ﷺ.

وكذلك بين البحث نوعين كل منهما بنى مسجداً، نوع بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن

حـــارب الله ورسـوله، ونوع بنى مـسـجـداً على التـقـوى من أول يــوم.

وانتـهى البـحـث إلى أن التـوبـة تمحـو السـيـئـات، وأن الله تعالى بسبب توبة أصحاب الجنة ورجوعهم إلى الله تعالى ورغبتهم فيما عنده أبدلهم خيراً منها.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

المقدمة

حوى كتاب الله تعالى الكثير من الأمور التي تهم الفرد والمجتمع في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهو كالبستان المثمر فيه ما لذ وطاب ينتقي منه الإنسان أطايب الثمار ، وأحلى الأزهار ، وكذلك القرآن الكريم يقرؤه المؤمن فيجد فيه القصص والعبر والأحكام والأمثال كما يجد فيه ذكر الجنة والنار ، وما أعد الله تعالى للمؤمنين والكفار ، والذي استوقفني من تلكم القصص والعبر ما جاء في سورة القلم أو سورة نون ، من الحديث عن أصحاب الجنة ، وما آل إليه أمرهم من بوار وخسارة ، حيث فقدوا أعز ما يملكون من حطام هذه الدنيا الفانية البستان الذي خلفه لهم أبوهم الصالح ، لكنهم لم يعرفوا قدر ما كان يعمله أبوهم وإنما تعاقدوا على الشر والحرمان فباءوا هم قبل غيرهم بذلك ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾ ١٩-٢٠القلم.

فأردت أن لا تمر هذه القصة دون أن أنقلها إلى القارئ الكريم عل الله تعالى أن ينفع بها ، والله يتولانا بحفظه ، ويرعانا برعايته ويكلؤنا من كل سوء .

وقد أردت أن يكون هذا الموضوع مبدوءا بقصة أصحاب الجنة وما يتعلق بها ، ثم أتكلم عن النية ، وعن

أثرها في الأحكام ، ولذلك جاء البحث في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة:

الفصـــل الأول: فيما يتعلق بسورة (ن)

والفصل الثاني: فيما يتعلق بأصحاب الجنة .

والفصل الثالث: فيما يتعلق بالنية من أحكام .

والفــصل الرابع: في مــثـــالين من القـــرآن الكريم على المؤاخذة على النية .

والفصل الخامس : في نتيجة الندم الذي ندمه أصحاب الجنة.

والخاتمة.

والله الموفق للهدى والداعي إلى الرشاد .

الفصل الأول : فيما يتعلق بسورة (ن) .

وفيه تمهيد وسبعة مباحث

التمهيد:

ذكر الله تعالى قصة أصحاب الجنة في سورة (ن) وتسمى سورة القلم

وسأتكلم شيئًا عن هذه السورة قبل الكلام عن القصة، وفي البداية نعرض آيات القصة من القرآن الكريم .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ .

المبحث الأول : عدد آيات سورة (ن)

اتفق المفسرون على أن سورة (ن) تتكون من (٥٢) اثنتين وخمسين آية، ليس فيهم مخالف[١]

المبحث الثاني : أين نزلت سورة (ن) ؟

اتفق المفسرون على أن أول سورة (ن) إلى الآية (١٦) ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ ومن الآية (١٧) ﴿إنا بلوناهم﴾ إلى الآية (٣٤) ﴿لو كانوا يعلمون﴾ والآيتان آخر السورة ، كل ذلك نزل في مكة ،

ثم اختلفوا هل نزل الباقي ، أي نزلت سورة (ن) كلها في مكة أو أن فيها ما نزل بالمدينة ؟ إلى ثلاثة أقوال :

١- القول الأول : سورة (ن) كلها مكية[٢]، قال ذلك الحسن[٣] وعكرمة[٤] .

---

١) تفسير الطبري ١٣/٢٩ . تفسير البيضاوي ٣٦٨/٥ . تفسير البغوي ٣٧٤/٤. تفسير الشوكاني = فتح القدير للشوكاني ٥/ ٢٦٦ . وروح المعاني للآلوسي ٢٩/ ٢٣,

٢) تفسير البيضاوي ٣٦٨/٥.تفسير الطبري ١٣/٢٩ . تفسير الثعالبي ٤/ ٤٣٧ وهي مكية بالإجماع . الناسخ والمنسوخ للمقري ٢٠١/١ وهي من أول تنزيل القرآن على قول الأكثرين ، كلها محكم ليس فيها ناسخ ومنسوخ .

٣) الحسن البصري ٢١-١١٠هـ

الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد تابعي ، كان حبر الأمة في زمانه ، وأحد الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ، شب في كنف علي بن أبي طالب.

تقريب التهذيب لابن حجر ١٦٥/١ ترجمة ٢٦٣. حلية الأولياء ١٣١/٢. ترجمة ١٦٩.

٤) عكرمة ٢٥-١٠٥هـ

عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله ، مولى ابن عباس ، تابعي من أعلم الناس بالتفسير والمغازي

تهذيب التهذيب لابن حجر ١٦٣/١٣-١٨١ ترجمة ٤٥٩٣. حلية الأولياء للأصفهاني ٢٣٦/٣ ترجمة ٢٤٥.

وعطاء[1] وجـابر[2] ، وابن حـزم الأندلسي[3] وأخـرج النحاس[4] وابن مردويه[5] والبيهقي[6] عن ابن عباس[7] قال : نزلت سورة نون بمكة[8] ، وأخرج ابن مردويه عن

---

١) عطاء ٢٧-١١٤هـ

عطاء بن أبي رباح = عطاء بن أسلم بن صفوان أبو محمد ، تابعي من أجلاء الفقهاء ، قدم ابن عمر مكة فقال : تجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح ؟!

صفة الصفوة لابن الجوزي ١٢٥/٢- ١٢٧٠ تقريب التهذيب لابن حجر ٢٢/١ ترجمة ١٩٠.

٢) جابر ت. بعد عام ٧٠هـ

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري ، ثم السلمي ، صحابي غزا (١٩) تسع عشرة غزوة ، ومات بالمدينة ، وعمره أربع وتسعون سنة .

الإصابة لابن حجر ٢١٣/١ ترجمة ١٠٢٦. تقريب التهذيب لابن حجر ١٢٢/١ ترجمة ٩.

٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٢٦٦/٥ . وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢٤٠/٨ . والناسخ والمنسوخ للكرمي ٢١٢/١ ، تفسير البغوي ٣٧٤/٤.الناسخ والمنسوخ لابن حزم ٦٦/١.

وابن حزم ٣٨٤-٤٥٦هـ

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأندلسي القرطبي ، فقيه ، أصولي محدث ، حافظ ، مصنف الإيصال إلى فهم الخصال ، والمحلى بالآثار .

تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/ ٣٢١-٣٢٩. البداية والنهاية لابن كثير ٩١/١٢-٩٢.

٤) النحاس ت.٣٣٨هـ

أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي ، أبو جعفر النحاس ، مفسر أديب ، كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري ، له تفسير القرآن ، وإعراب القرآن ، ومعاني القرآن ،

النجوم الزاهرة ٣٠/٣ . والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٢/١١.

٥) ابن مردويه ٣٢٣-٤١٠هـ

أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني ، أبو بكر ، حافظ ، مؤرخ ، مفسر ، له كتاب التأريخ ، وتفسير القرآن ، ومستخرج في الحديث .

شذرات الذهب لابن العماد ١٩٠/٣. طبقات الحفاظ للسيوطي ص٤١٢ ترجمة ٩٣٠.

٦) البيهقي ٣٨٤-٤٥٨هـ

أحمد بن الحسين بن علي ، من أئمة الحديث ، نصر المذهب الشافعي ، وبسط موجزه ، وأيد آراءه ، كان عارفا بالعلوم ، عارفا بالاختلاف

شذرات الذهب لابن العماد ٣٠٤/٣. وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠/١.

٧) ابن عباس ٣ق. - ٦٨هـ .

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، الهاشمي ، القرشي ، أبو العباس ابن عم رسول الله (ولد بالشعب . الإصابة لابن حجر ٣٣٠/٢-٣٣٤ ترجمة ٤٧٨١. الاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٣٥٠ - ٣٥٧.

٨) بلد الله الحرام ، أعرف من أن تعرف .

عائشة [1] مثله [2]

٢- القول الثاني : عن ابن عباس وقتادة [3] أنها من أولها إلى قوله تعالى ﴿ سنسمه على الخرطوم﴾ مكي ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى ﴿من الصالحين ﴾ مدني [4]

٣- القول الثالث : قال أبو السعود [5] : إن المدني منها موضعان :

من الآية (١٧) ﴿ إنا بلوناهم ﴾ إلى الآية (٣٣) ﴿لو كانوا يعلمون﴾ .

---

١) عائشة الصديقة ٩ق.هـ . -٥٨هـ

عائشة بنت أبي بكر الصديق ، أم عبد الله ، قرشية ، أفقه نساء المسلمين ، وأعلمهن بالدين والأدب .

الإصابة لابن حجر ٤/٣٥٩-٣٦١. طبقات ابن سعد ٨/ ٣٩.

٢) فتح القدير = تفسير الشوكاني ٥/٢٦٦ .

٣) قتادة ٦١- ١١٨هـ

قتادة بن دعامة بن عزيز ، أبو الخطاب ، السدوسي ، البصري ، مفسر ، حافظ ، كان أحفظ أهل البصرة ، وكان رأسًا بالعربية ، ومفردات اللغة ، وأيام العرب والنسب

طبقات الحفاظ للسيوطي ١١٥ ترجمة ١٠٤ تقريب التهذيب لابن حجر ٢/١٢٣ ترجمة ٨١.

٤) فتح القدير للشوكاني = تفسير الشوكاني ٥/ ٢٦٦ وروح المعاني للآلوسي ٢٩/٢٣.

٥) أبو السعود ٨٩٨- ٩٨٢هـ

محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، المولى أبو السعود ، مفسر ، شاعر ، له تفسير سماه إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، وتحفة الطلاب في المناظرة ، دفن جنب أبي أيوب الأنصاري.

شذرات الذهب لابن العماد ٨/٣٩٨. الفوائد البهية ص, ٨١

ومن الآية (٤٨) ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ إلى الآية (٥٠)﴿فجعله من الصالحين﴾ .

(قلت) : و الباحث ليس لديه ما يرجح به واحدًا من هذه الأقوال ، لكن كل الكلام الذي يأتي يرجح أنها مكية ، خاصة وأن نزولها كان مع أوائل السور المكية . والله أعلم .

المبحث الثالث : متى نزلت سورة (ن) ؟

نزلت سورة (ن) بعد سورة العلق ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾

أخرج ابن الضريس [1] عن ابن عباس قال : كانت إذا نزلت سورة بمكة كتبت بمكة ، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل القرآن ﴿اقرأ باسم ربك﴾ ثم نون ، ثم المزمل، ثم المدثر.

وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي عنه قال : نزلت سورة نون بمكة ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله [2]

ويرى الأستاذ سيد قطب [3] - رحمه الله تعالى - رأياً

١) ابن الضُريس ٢٠٠- ٢٩٤هـ

محمد بن أيوب بن يحيى بن الريس البجلي الرازي ، أبو عبد الله ، من حفاظ الحديث ، له كتاب فضائل القرآن

تذكرة الحفاظ للذهبي ١٩٥/٢ .علوم القرآن ٤٢٢ .

٢) فتح القدير = تفسير الشوكاني ٢٦٦/٥ . الناسخ والمنسوخ للمقري : قال : من أول تنزيل القرآن على قول الأكثرين . وروح المعاني للآلوسي ٢٣/٢٩ .

٣) سيد قطب ١٣٢٤- ١٣٨٧هـ .

سيد قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي مصري ، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط ، عمل في جريدة الأهرام ، وكتب في مجلتي الرسالة والثقافة ، كان يريد تغيير المناهج لتكون إسلامية ، انظر إلى الإخوان المسلمين ، وسجن فعكف على التأليف ، له : في ظلال القرآن تفسير ، والعدالة الاجتماعية في الإسلام وغيرها كثير ، وأعدم شنقاً سنة ١٩٦٦م .

مجلة العرب ١٥٩/٨ ، جريدة أخبار اليوم ١٩٦٥/٩/١١م

آخر ، فهو يقول - بعد كلام طويل : والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول ، وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية ، بعد أمر النبي (بالدعوة العامة ، وبعد قول الله تعالى له ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم ، التي قال عنها قائلهم ﴿أساطير الأولين﴾ وبعدما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالإتهامات الباطلة ، والحرب العنيفة التي اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة في السورة على المكذبين ، والتهديد القاصم من أولها وفي آخرها على السواء ، والمشهد الأخير في السورة يوحي بذلك ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ ... ثم يقول :

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى ، وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل بين بدء الدعوة وبين نزولها ، ولا يعقل أن ثلاث سنوات مرت لم ينزل فيها قرآن ... ولكن هذا لا ينفي أن تكون هذه السورة ، وسورتا المدثر والمزمل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة [١]

١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/, ٣٦٥١

المبحث الرابع : هل فيها ناسخ[1] ومنسوخ ؟

اختلف المفسرون في ذلك على قولين :

١- فقال ابن حزم والمقري[2] : ليس فيها ناسخ ومنسوخ ،

٢- وقال الكرمي[3] : فيها من المنسوخ على ما زعم بعضهم آيتان: قوله تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾(٤٤) منسوخة بآية السيف وقوله تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾(٤٨) نسخت بآية السيف[4]

(قلت): الصحيح أنها ليست منسوخة. والله أعلم .

---

١) قال أبو بكر الهمذاني : وقد أطبق المتأخرون على ما ذكره القاضي : أنه الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتا به مع تراخيه عنه . قال الهمذاني : وهذا حَدٌّ صحيح ، وذكر أنه قد عرف النسخ بأنه انتهاء مدة العبادة ، وقيل بيان انقضاء مدة العبادة التي ظاهرها الدوام ، وقال بعضهم : إنه رفع الحكم بعد ثبوته . الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار للهمذاني ص٨.

٢) المقَّري ت.سنة ٧٥٨هـ

محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر ، أبو عبد الله القرشي التلمساني من الفقهاء الأدباء من المالكية له القواعد في الفقه ، والحقائق والرقائق ، وغيرها .

شذرات الذهب لابن العماد ١٩٣/٦- ١٩٦.شجرة النور الزكية لمحمد محمد مخلوف ٢٣٢ .

٣) الكرمي ت. ١٠٣٣هـ

مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي المقدسي الحنبلي ، محدث ، فقيه ، مؤرخ ، أديب ، أحد أكابر علماء الحنابلة له دليل الطالب لنيل المطالب فقه حنبلي ، أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات .

خلاصة الأثر للمحبي ٣٥٨/٤-٣٦١. هدية العارفين للبغدادي ٢/ ٤٢٦-٤٢٧ .

٤) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ٦٦/١ . والناسخ والمنسوخ للمقري ٢٠١/١ . والناسخ والمنسوخ للكرمي ٢١٢/١ .

المبحث الخامس : ترتيب عدد سورة (ن) في القرآن الكريم:

جاء في ترقيم المصاحف أن سورة القلم هي السورة الثامنة والستون (٦٨) في ترتيب سور القرآن الكريم .

المبحث السادس : ترتيب سورة (ن) في القرآن الكريم:

تأتي سورة (ن) بعد سورة الملك ، والمناسبة في ذلك ، هي أن الله تعالى ختم سورة الملك بالوعيد ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين﴾ وافتتاح هذه أي سورة (ن) به ﴿فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون﴾

وقال الجلال السيوطي [(١)] في ذلك : لما ذكر في آخر الملك التهديد بتغوير الماء ، استظهر عليه في هذه بإذهاب ثمر أصحاب الجنة في ليلة بطائف طاف عليهم وهم نائمون ، فأصبحوا ولم يجدوا له أثرًا ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق ، وإذا كان هذا في الثمار - وهي أجرام كثيفة - فالماء الذي هو لطيف أقرب إلى الإذهاب ، ولهذا قال سبحانه هنا ﴿وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم﴾ وقال - جل وعلا - هناك ﴿إن أصبح ماؤكم غورًا﴾ إشارة إلى أنه يسري عليه في ليلة ، كما أسري على الثمر في ليلة . انتهى. ولا يخلو عن حسن [(٢)]

---

١) السيوطي ٨٤٩-٩١١هـ

عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخيري جلال الدين إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو من (٦٠٠) مؤلف منها الإتقان في علوم القرآن ، وإتمام الدراية لقراء النقاية .

شذرات الذهب لابن العماد ٥١/٨. الضوء اللامع ٦٥/٤ .

٢) روح المعاني للآلوسي ٢٢/٢٩-٢٣ .

الفصل الثاني : فيما يتعلق بقصة أصحاب الجنة:

في هذا الفصل أحد عشر مبحثًا ، كما يلي :

المبحث الأول: مناسبة قصة أصحاب الجنة مع ما قبلها في سورة(ن)

لما قال الله تعالى عن الوليد بن المغيرة [١] ﴿أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ عقب على ذلك بقصة أصحاب الجنة الذين كانوا معروفين عندهم على ما يبدو ، شائع بينهم ذكرهم ، يذكرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة ، ومنع الخير ، والاعتداء على حقوق الآخرين ، ويشعرهم أن ما بأيديهم من نعم المال والبنين إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة. [٢]

المبحث الثاني : من أي قوم أشخاص هذه القصة:

هل هم من المسلمين أو من غيرهم وما هي ديارهم ؟

اختلف المفسرون في ذلك على أقوال :

١- هم من أهل الكتاب [٣] كانوا مستمسكين بشرائع الإنجيل [٤]

---

١) الوليد بن المغيرة ٩٥ ق.هـ - ١هـ

الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أبو عبد شمس ، من قضاة العرب في الجاهلية ، ومن زعماء قريش ، ومن زنادقتها ، حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاومه ، وهو والد خالد بن الوليد .

الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٦ . اليعقوبي ١/ ٢١٥ .

٢) انظر في ظلال القرآن سيد قطب ٦/ ٣٦٦٤.

٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٨ .

٤) البدء والتأريخ ٣/ ١٣١ . زاد المسير٨/ ٣٣٥ . كانوا مؤمنين وذلك بعد عيسى بن مريم . الدر المنثور ٨/ ٢٥٠ كانوا من أهل الكتاب ، الدر المنثور ٨/ ٢٥٠ . أخرج عن ابن عباس : أنهم كانوا من أهل الكتاب ، وعن قتادة أنهم من بني إسرائيل ،

٢- هم من المسلمين[1] (قلت) لعله يريد أنهم من المؤمنين بعيسى عليه السلام لما سيأتي عند القرطبي قريباً.

٣- قوم من أهل الصلاة[2] .

٤- من الحضارمة[3] .

٥- من أهل الفترة[4] .

٦- هم من ثقيف[5] .

٧- هم من الحبشة[6]

(قلت) : يمكن الجمع بين هذه الأقوال بأن أصحاب الجنة كانوا باليمن ، وكانت اليمن تابعة - في ذلك الوقت - للحبشة ، بدليل أن إبرهة الذي أراد هدم الكعبة المشرفة كان باليمن من قبل ملك الحبشة . والله أعلم .

١) نقله الشوكاني في تفسيره ٥/ ٢٧١ عن الواحدي .

٢) تفسير أبي السعود ١٤/٩ . تفسير البغوي ٣٧٩/٤ .

٣) معجم البلدان ٤٣٣/٣ .

والحضارمة : جمع حضرمي ، نسبة إلى حضرموت : وهي بلدة من اليمن قرب عدن ، ينسب إليها حضرمي . المصباح المنير للفيومي ١٥٢/١.

٤) البدء والتأريخ ١٣١/٣. والفترة : ما بين الرسولين من رسل الله تعالى من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة . النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٣/ ٤٠٨ مادة (فتر) .

٥) تفسير الشوكاني ٢٧١/٥ قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين . اهـ . وثقيف : حي باليمن والنسبة إليه ثقفي بفتحتين ، المصباح المنير للفيومي ١/ ٩١، مادة (ثقف) وهم الآن قبيلة كبيرة في الطائف وغيرها ، في المملكة العربية السعودية

٦) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ . والحبشة : هي بلاد تقع في الشمال الشرقي من أفريقيا ، وبها أراض مرتفعة ، ووديان عميقة ، يزرع فيها البن والحبوب والفاكهة ، ومنها ينبع النيل الأزرق الذي يسبب فيضان نيل مصر . دائرة المعارف للناشئين , ١٢٤

المبحث الثالث : زمان القصة :

لم تبين المصادر التي ذكرت القصة زمانًا محددًا وقعت فيه أحداثها ، لكن القرطبي [١] قال : وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بقليل [٢] .

المبحث الرابع : مكان القصة:

اتفق المفسرون على أن مسرح القصة كان في اليمن ، في قرية يقال لها ضَرَوَان [٣] أو صَوران [٤] وعليه أكثر المفسرين.

(قلت): وهو الصحيح حسب ما ذكر في معجم البلدان.

وقيل: هم من الحبشة [٥] . والله أعلم .

(قلت): ولا تعارض كما بينا .

---

١) القرطبي ت. ٦٧١هـ

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرَح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، أبو عبد الله القرطبي ، من كبار المفسرين ومن عباد لله الصالحين والعلماء العارفين .

الديباج المذهب لابن فرحون ص٣١٧ ، نفح الطيب ١/ ٤٢٨ . وانظر مقدمة الجامع لأحكام القرآن ، رقم و. - ز.

٢) تفسير القرطبي ٢٣٩/١٨.

٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧ ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان ، على ستة أميال من صنعاء . تفسير الشوكاني ٢٧١/٥: على فرسخين من صنعاء . البدء والتأريخ ١٣١/٣ : أصحاب ضروان ، وهي جنة كانت بصنعاء .

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي ٥١٨/٣ قال ضَرَوان : بالتحريك وآخره نون : بليد قرب صنعاء سمي باسم واد هو على طرفه ، وذلك الوادي هو مستطيل ، هذه المدينة في طرفه من جهة صنعاء اهـ. وأما صوران فقد قال في معجم البلدان : قرية للحضارمة باليمن بينها وبين صنعاء اثنا عشر ميلا ، خرجت منه نار ، فثارت الحجارة وعروق الشجر حتى أحرقت الجنة التي ذكرت في القرآن المجيد .

٤) معجم البلدان ٤٩١/٣ . الصَّوْرَان : قرية للحضارمة باليمن بينه وبين صنعاء اثنا عشر ميلا ، خرجت منه نار ، فثارت الحجارة وعروق الشجر حتى أحرقت الجنة التي ذكرت في القرآن المجيد.

٥) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

المبحث الخامس : عدد أولاد صاحب الجنة:

لم يذكر أغلب المفسرين عدد الأولاد الذين ورثوا الجنة عن أبيهم ، وشاركوا في القصة ، لكن صاحب زاد المسير حدد عددهم ، وقال : إنهم ثلاثة [1] وكذلك نقل القرطبي عن ابن عباس أنهم ثلاثة [2] .

والمفهوم من كلام البيضاوي [3] في تفسيره أنهم أكثر من ثلاثة ، فقد قال – عند كلامه عن تلاوم أصحاب الجنة: فإن منهم من أشار بذلك – يعني حرمان الفقراء – ومنهم من استصوبه ، ومنهم من سكت ، ومنهم من أنكره [4] وكذلك نقل القرطبي عن ابن عباس أنهم ثلاثة

(قلت): الأولى عدم القطع بعدد محدد إلا بدليل شرعي صحيح . والله أعلم.

---

١) زاد المسير ٨/ ٣٣٥ . تفسير البغوي ٤/ ٢٧٩.

٢) تفسير القرطبي ٢٤٠/١٨.

٣) البيضاوي ت. سنة ٦٨٥هـ

عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ، أبو سعيد ، ناصر الدين ، البيضاوي ، قاض مفسر علامة له تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ولب اللباب في علم الإعراب .

البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٣٠٩ . بغية الوعاة ٢٨٦.

٤) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٧٣. تفسير أبي السعود ٩/ ١٤.تفسير الواحدي ١١٢٢/٢.

المبحث السادس : ماذا كان يفعل صاحب الجنة في جنته:

اتفقت آراء المفسرين على أن صاحب الجنة كان يؤدي حق الله تعالى فيها ، وإن اختلفت عباراتهم في التعبير عن ذلك، وإليك عباراتهم :

قال الطبري[١] : كانت الجنة لشيخ ، وكان يتصدق ، فكان بنوه ينهونه عن الصدقة ، وكان يمسك قوت سنته وينفق ويتصدق بالفضل اهـ[٢]

وقال البيضاوي: الجنة : يريد البستان الذي كان دون صنعاء[٣] بفرسخين[٤] ، وكان لرجل صالح ، وكان ينادي الفقراء وقت الصرام ، ويترك لهم ما أخطأه المنجل ، وألقته الريح ، أو بعُد من البساط الذي يبسط تحت النخلة، فيجتمع لهم شيء كثير اهـ[٥]

وقال القرطبي : عن السدي[٦] قال : وكان أبوهم رجلا

---

١) الطبري ٢٢٤- ٣١٠هـ

محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر : المؤرخ المفسر الإمام ، عرض عليه القضاء فامتنع ، والمظالم فأبى. له: أخبار الرسل والملوك يعرف بتأريخ الطبري ، وجامع البيان في تفسير القرآن ، واختلاف الفقهاء .

تذكرة الحفاظ ٣٥١/٢ . البداية والنهاية لابن كثير ١٤٥/١١ .

٢) تفسير الطبري ٢٩/٢٩.

٣) صنعاء : عاصمة اليمن ، وسميت باسم الذي بناها وهو صنعاء بن أزال بن عبير ، وقيل لأن صنعتها متقنة ، (قلت) على حدٍّ قوله تعالى صنع الله . معجم البلدان ٤٨٤/٣.

٤) الفرسخ = ٥٥٤٤ مترًا ، الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، لابن الرفعة الأنصاري تحقيق د/محمد أحمد إسماعيل الخاروف ص٧٧.

٥) تفسير البيضاوي ٣٧١/٥. وبنحوه في تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤.

٦) السُدِّيُّ ت. سنة ١٢٨هـ

إسماعيل بن عبد الرحمن ، تابعي ، حجازي سكن الكوفة ، كان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس

النجوم الزاهرة ٣٠٨/١ . واللباب ١/ ٥٣٧ .

صـالحًا ، وكـان إذا بلغ ثمـاره ، أتاه المسـاكين ، فلم يمنعـهم من دخولها ، وأن يأكلوا منها ، وأن يتزودوا .

وقـال ابن عـبـاس : كـانت تلك الجنة دون صنعـاء بفرسخين ، غرسها رجل من أهل الصلاح ، وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمسـاكين كل ما تعداه المنجل ، فلم يجذه من الكرم ، فـإذا طرح على البسـاط فكل شيء سـقط عن البساط فهو أيضا للمساكين ، فإذا حصدوا زرعهم ، فكل شيء تعداه المنجل ، فهو للمسـاكين ، فإذا درسوا كان لهم كل شيء انتثر ، فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين ، وكان يعيش في ذلك - في حياة أبيهم - اليتامى والأرامل والمساكين اهـ [١]

وقال الواحدى [٢] : هم قوم من ثقيف ، كانوا باليمن مسلمين ، ورثوا من أبيهم ضيعة ، فيها جنات وزرع ونخيل ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظّاً للمسـاكين عند الحصاد والصرام [٣]

وفي البدء والتأريخ قال : قصة أصحاب ضَرَوَان وهى

---

١) تفسير القرطبي ١٨/٢٤٠.

٢) الواحدي ت. سنة ٤٦٨هـ

علي بن أحمد بن محمد النيسابوري الشافعي ، أبو الحسن ، مفسر، نحوي ، لغوي ، فقيه ، شاعر له البسيط في ١٨ مجلداً في التفسير ، والمغازي ،

سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٤. طبقات الشافعية للإسنوي ١/١٨٢.

٣) تفسير الشوكاني ٥/, ٢٧١

جنة كانت بصنعاء فى الفترة ٠٠٠قالوا : إنهم كانوا قومًا مستمسكين بشرائع الإنجيل ، فإذا كان أيام صرامهم ، نادوا فى الفقراء والمساكين ، فكان لهم ما أسقط الطير ، وأخطأ المنجل[١]

وقال ابن الجوزي [٢] ذكر أهل التفسير أن رجلا كان بناحية اليمن - له بستان - وكان مؤمنًا ، وذلك بعد عيسى ابن مريم - عليهما السلام - وكان يأخذ منه قدر قوته ، وكان يتصدق بالباقي ، وقيل : كان يترك للمساكين ما تعداه المنجل ، وما يسقط من رؤوس النخل ، وما ينتثر عند الدّراس ، فكان يجتمع من هذا شيء كثير[٣]

وقال السيوطي : عن قتادة ، قال : كانت الجنة لشيخ من بني إسرائيل ، وكان يمسك قوت سنته ، ويتصدق بالفضل ، وكان بنوه ينهونه عن الصدقة اهـ[٤] .

وقال الثعالبي [٥] : وأصحاب الجنة - فيما ذكر -

١) البدء والتأريخ ١٣١/٣.

٢) ابن الجوزي ٥١٠ - ٥٩٧هـ

عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي البغدادي الحنبلي ، حافظ ، مفسر ، مؤرخ ، له المنتظم في تأريخ الأمم .

تذكرة الحفاظ للذهبي ١٣١/٤. طبقات المفسرين للسيوطي ص١٧.

٣) زاد المسير ٣٣٦/٨.

٤) الدر المنثور ٨/ ,٢٥٠

٥) الثعالبي ٧٨٦- ٨٧٥هـ

عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري ، أبو زيد ، مفسر من أعيان الجزائر له الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، وجامع الأمهات في أحكام العبادات .

الضوء اللامع للسخاوي ١٥٢/٤. نيل الإبتهاج للتنبكتي ١٧٣- ١٧٥.

كانوا إخوة ، وكان لأبيهم جنة وحرث ، يغتله [1] ، فكان يمسك منه قوته ، ويتصدق على المساكين بباقيه.

وقيل: بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده وجذه ، فيجديهم منه [2]

وفي تفسير أبي السعود قال:

أصحاب الجنة : وهم قوم من أهل الصلاة ، كانت لأبيهم هذه الجنة - دون صنعاء بفرسخين - فكان يأخذ منها قوت سنة ، ويتصدق بالباقي ، وكان ينادي الفقراء وقت الصرام ، ويترك لهم ما أخطأه المِنجل ، وما في أسفل الأكداس ، وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة - إذا صرمت - فكان يجتمع لهم شيء كثير [3]

وفي تفسير البغوي [4] : عن ابن عباس في قوله - عز وجل - ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ قال: كان بستان باليمن - يقال له الضروان ، دون صنعاء بفرسخين

---

١) يعني يستغله .

٢) تفسير الثعالبي ٣٢٧/٤.

٣) تفسير أبي السعود ١٤/٩.

٤) البغوي ت.سنة ٥١٦هـ

الحسين بن مسعود أبو محمد ، المعروف بالفراء البغوي الشافعي ، فقيه محدث ، مفسر ، له : معالم التنزيل في التفسير كان دينا ورعا قانعا باليسير

طبقات الشافعية للإسنوي ١٠١/٢ ترجمة ,١٧٧ شذرات الذهب لابن العماد ٤٨,/٤

- يطؤه أهل الطريق ، كان غرسه قوم من أهل الصلاة ، وكان لرجل ، فمات فورثه ثلاثة بنين له ، وكان يكون للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعداه المِنجل فلم يجزه ، وإذا طرح من فوق النخل إلى البساط ، فكل شيء يسقط على[1] البساط فهو أيضا للمساكين ، وإذا حصدوا زرعهم ، فكل شيء تعداه المنجل ، فهو للمساكين ، وإذا داسوه كان لهم كل شيء ينتثر أيضًا[2] .

(قلت): بعد هذه الجولة في أقوال بعض المفسرين ، نجد أن الأمر كان معلومًا لدى بعض الناس ، ولكن من المعلوم أن مثل هذه القصص لابد أن يكون فيها مثل هذه الزيادة والنقصان على بعد الزمان ، وتفاوت المكان . والله أعلم.

المبحث السابع : نظرة الأولاد إلى فعل أبيهم ؟

يبدو أن أولاد صاحب الجنة كانوا ينظرون إلى أبيهم نظرات متفاوتة:

فمنهم من يرى أن عمله كان طيبًا يستحق الثناء ، وهو الذي أنكر على إخوانه فعلهم ، ومنهم من يراه حماقة ، وهو من أشار بمنع المساكين من حقهم.

ومنهم من كان يرى أن عمل أبيهم كان في وقته طيبًا

---

١) لعل الكلمة (عن) البساط وتقدم له مثال

٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

لأن المال كثير والعيال كانوا قليلا ، لكنه الآن ليس كذلك ، ولعل هذا ممن استصوب منع المساكين ، ومنهم من سكت. والله أعلم.

وقد عرفنا قبل قليل - عند كلامنا عن عدد الأولاد - أن منهم من أشار بحرمان الفقراء ، ومنهم من استصوبه ، ومنهم من سكت ، ومنهم من أنكره ، ومن هنا نستطيع أن نفسر اختلاف المفسرين في كلام الأولاد عن أبيهم ، وإليك ما قاله الأولاد:

قال البيضاوي وأبو السعود والواحدي : فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر فحلفوا ليصرمنها اهـ .[1]

وقال ابن كثير : فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا [2]

وقال الطبري : فلما مات أبوهم قال بنوه : والله إن كان أبونا لأحمق ، حين يطعم المساكين ، فأقسموا ليصرمنها مصبحين [3] .

ونقل السيوطي عن ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن

١) تفسير البيضاوي ٥/٣٧١.

٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٨.

٣) تفسير الطبري ٢٩/ ,٢٩

عباس : فمات أبوهم فقال بنوه : إن كان أبونا لأحمق ، يطعم المساكين ، فأقسموا ليصرمنها مصبحين [(١)] .

وفي زاد المسير قال ابن الجوزي : فمات الرجل عن ثلاثة بنين فقالوا : والله إن المال لقليل وإن العيال لكثير ، وإنما كان أبونا يفعل هذا إذ كان المال كثيرًا والعيال قليلا ، وأما الآن فلا نستطيع أن نفعل هذا ، فعزموا على حرمان المساكين [(٢)] .

وقال الثعالبي : فمات الشيخ ، فقال ولده : نحن جماعة وفعل أبينا كان خطأ ، فلنذهب إلى جنتنا ، ولا يدخلها علينا مسكين ، ولا نعطي منها شيئًا [(٣)]

أما القرطبي فلم يذكر عن الأولاد إلا أنهم منعوا المساكين حقهم فقال : فلما مات صارت إلى ولده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحق الله فيها ، فأهلكها الله [(٤)]

وقال في موضع آخر : فلما مات قال بنوه بعضهم لبعض علام نعطي أموالنا هؤلاء المساكين ؟ تعالوا فلندلج ، فلنصرمنها قبل أن يعلم المساكين ... فلما مات أبوهم فعلوا ما قصه الله عنهم فقالوا : قل المال وكثر العيال [(٥)] .

وهكذا عرفنا أن الأولاد انقسموا فيما بينهم بين مشير بالرأي الفاسد ، وبين مستحسن ، أو ساكت ، أو منكر. والله أعلم.

---

١) الدر المنثور ٨/٢٥٠ .

٢) زاد المسير ٨/٣٣٥. تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩. تفسير الشوكاني ٥/٢٧١.

٣) تفسير الثعالبي ٤/٣٢٧.

٤) تفسير القرطبي ١٨/٢٣٩.

٥) تفسير القرطبي ١٨/,٢٤٠

المبحث الثامن : هل هم من أهل الجنة أو من أهل النار ؟

عن معمر [1] قال : قلنا لقتادة : أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار؟

قال: لقد كلفتني تعبًا [2]

وعن الحسن - رحمه الله تعالى - قول أصحاب الجنة إنا إلى ربنا راغبون ، لا أدري إيمانًا كان ذلك منهم ، أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة ؟ فتوقف في أمرهم.

والأكثرون على أنهم تابوا وأخلصوا حكاه القشيري [3]

(قلت): المسألة لا تحتاج إلى كثير عناء، فهم قد تابوا وطلبوا من الله تعالى أن يسامحهم وقالوا ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ والله تعالى لا يرد من تاب وأناب. والله أعلم، وسيأتي مزيد بيان في الفصل الخامس.

قال الثعالبي في تفسيره : فبادر القوم عند ذلك وتابوا

---

١) معمر ت.سنة ١٥٤هـ

معمر بن راشد الأزدي مولاهم ، أبو عروة البصري ، ثقة ، ثبت ، فاضل .

تقريب التهذيب لابن حجر ٢٦٦/٢ .ترجمة ١٢٨٤ . الخلاصة للأنصاري ص٣٨٤.

٢) الدر المنثور ٢٥٢/٨ .تفسير أبي السعود ١٦/٩.

٣) تفسير أبي السعود ١٦/٩ . تفسير القرطبي ٢٤٥/١٨.

والقشيري ٣٧٦-٤٦٥هـ

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري ، أبو القاسم ، زين الإسلام ، من كتبه التيسير في التفسير ، والتفسير الكبير . طبقات الشافعية للسبكي ٢٤٣/٣-٢٤٨ .تأريخ بغداد للخطيب ٨٣,/١١

وسبحوا ، واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراء ، ولام بعضهم بعضًا ، واعترفوا بأنهم طغوا ، أي تعدوا ما يلزم من مواساة المساكين ، ثم انصرفوا إلى رجاء الله سبحانه ، وانتظار الفضل من لدنه في أن يبدلهم بسبب توبتهم وإنابتهم خيرًا من تلك الجنة.

وقال الثعالبي أيضًا : قال ابن مسعود [(١)] : بلغني أن القوم لما أخلصوا ، وعلم الله صدقهم ، أبدلهم الله – عز وجل – بها جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغلُ العنقود منها ، وعن أبي خالد اليماني [(٢)] : أنه رأى تلك الجنة ، ورأى كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم، انتهى. وقدرة الله أعظم فلا يستغرب هذا [(٣)]

المبحث التاسع : سبب نزول هذه القصة :

قال السيوطي: عن قتادة في قوله ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ قال: هؤلاء ناس قص الله عليكم حديثهم ، وبين لكم أمرهم.

---

١) ابن مسعود ت.سنة ٣٢.

عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أبو عبد الرحمن ، أسلم قديمًا ، وهاجر الهجرتين وشهد المشاهد ، ولازم النبي ﷺ.

الإصابة لابن حجر ٣٦٨/٢ – ٣٧٠ ترجمة ٤٩٥٤. الإستيعاب لابن عبد البر ٣١٦/٢-٣٢٤.

٢) لم أجده .

٣) تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤-٣٢٩ . تفسير أبي السعود ١٦/٩. تفسير البغوي ٣٨١/٤.

وعن ابن جريجأن أبا جهل [1] قال يوم بدر : خذوهم أخذًا ، فاربطوهم في الجبال ، ولا تقتلوا منهم أحدًا ، فنزل ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ يقول في قدرتكم عليهم ، كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة [2] .

(قلت) أي لم يقدروا على المسلمين كما لم يقدر أصحاب الجنة على جنتهم.

المبحث العاشر : مفردات قصة أصحاب الجنة في القرآن الكريم

﴿إنا بلوناهم﴾ أي اختبرناهم [3] امتحناهم فاختبرناهم [4] أي بلونا أهل مكة - شرفها الله تعالى - بالقحط والجوع [5] وذلك بدعوة النبي ﷺ عليهم.

والمعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أصحاب الجنة المعروف خبرهم عندهم، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حق الله منها فمات وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحق الله فيها [6] وقيل

---

١) أبو جهل ت.سنة ٢هـ

عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي ، أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، أحد سادات قريش ، وأبطالها وقادتها في الجاهلية ، قتل يوم بدر . عيون الأخبار ١/٢٣٠. السيرة الحلبية ٢/٣٣.

٢) الدر المنثور ٨/ ٢٥٠ .

٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧ . تفسير أبي السعود ٩/١٤ .

٤) تفسير الطبري ٢٩/٢٩ . تفسير الثعالبي٤/٢٣٧ . تفسير الواحدي ٢/ ١١٢٢.

٥) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٧٢ . تفسير الشوكاني ٥/٢٧١. تفسير الجلالين ١/٧٥٨ . زاد المسير ٨/٣٣٥ .تفسير الواحدي ٢/١١٢٢. تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

٦) تفسير القرطبي ١٨/٢٣٩. تفسير الشوكاني ٥/٢٧١ .

هي جنة بضروان ، وضروان على فرسخ من صنعاء.

قال القرطبي في تفسيره:

قال ابن الهيثم : البلاء يكون حسنا ويكون سيئا ، وأصله المحنة والله - عز وجل - يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره ، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها ليمتحن صبره، فقيل للحسن بلاء وللسيئ بلاء [1]

ونقل الآلوسي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾ عن الضحاك: أن المراد بالعذاب عذاب الجوع ، وذلك أنه - صلى الله تعالى عليه وسلم - دعا عليهم فقال: (اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سني يوسف) فاستجيب له - عليه الصلاة والسلام - فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرقة والعلهز [2]

وفي الأخبار ما يدل على أن ذلك كان قبل الهجرة ، وفيها أيضًا ما يدل على أنه كان قبلها [3]

ووفق البيهقي بأنه لعله كان مرتين ··· وتخصيص المترفين بالذكر لأنه إذا جاع المترف جاع غيره من باب أولى

وقيل: المراد بالعذاب عذاب الآخرة، وتخصيص

---

١) تفسير القرطبي ٣٨٧/١.

٢) العلهز : قال القرطبي : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه ، تفسير القرطبي ١٤٣/١٢.

٣) لعله بعدها.

المترفين بما ذكر ؛ لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم وكون ذلك أشق عليهم ؛ ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة ، فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم.

وقال شيخ الإسلام: إن هذا القول هو الحق ؛ لأن العذاب الأخروي هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط من النصر ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتمًا.

وأما عذاب الجوع ، فإن قريشًا - وإن تضرعوا فيه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكن لم يرد عليهم بالإقناط حيث روي أنه - عليه الصلاة والسلام - دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك . انتهى [1]

ونقل ابن كثير عن البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي العشاء إذ قال (سمع الله لمن حمده) ثم قال - قبل أن يسجد -

---

١) روح المعاني للألوسي ١٨/٤٨ .

(اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة [1] اللهم أنج سلمة بن هشام [2] اللهم أنج الوليد بن الوليد [3] ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم أشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف) [4]

ونقل ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –رفع يده بعد ما سلم وهو مستقبل القبلة فقال: (اللهم خلص الوليد بن الوليد ، وعياش بن أبي ربيعة ، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا من أيدي الكفار)

ونقل ابن جرير عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في دبر صلاة الظهر (اللهم خلص الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبي ربيعة وضعفة

---

١) عياش بن أبي ربيعة المتوفى سنة (١٥ هـ)

عياش بن عمرو بن الغيرة المخزومي القرشي ، يلقب بذي الرمحين ، أسلم قديما وهاجر الهجرتين .

تقريب التهذيب لابن حجر ٩٥/٢ ترجمة (٨٤٨)

٢) سلمة بن هشام المتوفى سنة (١٤) هـ

سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي ، أبو هاشم ، أسلم قديما ، وهو أخو أبي جهل . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ترجمة ٣٣٩٦ . تهذيب ابن عساكر ٢٣٤/٦ .

٣) الوليد بن الوليد المتوفى سنة (٧) هـ.

الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، من أشراف قريش في الجاهلية ومن أجوادهم ، وهو أخو خالد بن الوليد .

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ترجمة ٣٥١٩ الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر ٥٩٢/٣ .

٤) فتح الباري ٢٦٤/٨ برقم (٤٥٩٨)

المسلمين من أيدي المشركين الذين لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا)

ولهذا الحديث شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه كما تقدم [١]

(قلت): هو في البخاري بأطول من هذا حيث ذكر بسنده أن أبا هريرة كان يكبر في كل صلاة من المكتوبة وغيرها ، في رمضان وغيره : فيكبر حين يقوم ، ثم يكبر حين يركع ، ثم يقول سمع الله لمن حمده ، ثم يقول : ربنا ولك الحمد قبل أن يسجد ، ثم يقول : الله أكبر حين يهوي ساجدًا ، ثم يكبر حين يرفع رأسه من السجود ، ثم يكبر حين يقوم من الجلوس في الاثنتين ، ويفعل ذلك في كل ركعة حتى يفرغ من الصلاة ، ثم يقول حين ينصرف: والذي نفسي بيده إني لأقربكم شبهًا بصلاة رسول الله ﷺ إن كانت هذه صلاته حتى فارق الدنيا ، قالا: وقال أبو هريرة رضي الله عنه : وكان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه يقول: (سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد) يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم ، فيقول: (اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) وأهل المشرق يومئذٍ من مضر مخالفون له [١]

١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٣.

وذكر الآلوسي عند قوله تعالى ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾ المؤمنون: آراءً كثيرة غير ما تقدم ، وسأذكر ما قاله بطوله ليتبين المراد :

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر﴾ أي من سوء حال.

قيل: هو ما عراهم بسبب أخذ مترفيهم بالعذاب يوم بدر ، أعني الجزع عليهم ، وذلك بإحيائهم وإعادتهم إلى الدنيا بعد القتل ، أي ولو رحمناهم وكشفنا ضرهم بإرجاع مترفيهم إليهم ﴿للجوا﴾ لتمادوا ﴿في طغيانهم﴾ إفراطهم في الكفر والإستكبار ، وعداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

﴿يعمهون﴾ عامهين : مترددين في الضلال، يقال: عَمِهَ: كمَنَع وفرح ، عَمَهًا وعُمُوهًا وعُموهَةً وعُمْهَانًا.

وقيل: هو ما هم فيه من شدة الخوف من القتل والسبي ومزيد الإضطراب من ذلك ؛ لما رأوا ما حل بمترفيهم يوم بدر ، وكشفه بأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بالكف عن قتالهم وسبيهم بعد ، أو بنحو ذلك.

١) صحيح البخاري (١٠) كتاب الأذان (١٢٨) باب يهوي بالتكبير حين يسجد ، وانظر صحيح مسلم (٥) كتاب المساجد (٥٤) باب استحباب القنوت في جميع الصلاة . رقم (٢٩٢- ٦٧٥) ١/ ٤٦٦.

وهو وجه ليس بالبعيد.

وقيل: المراد بالضر : عذاب الآخرة : أي أنهم في الرداءة والتمرد إلى أنهم لو رحموا وكشف عنهم عذاب النار وردوا إلى الدنيا؛ لعادوا لشدة لجاجهم فيما هم عليه.

وفيه من البعد ما فيه.

واستظهر أبو حيان أن المراد به القحط والجوع الذي أصابهم بدعاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وذكر أنه مروي عن ابن عباس وابن جريج.

وقد دعا عليهم - صلى الله عليه وسلم - بذلك في مكة يوم ألقى عليه المشركون - وهو قائم يصلي عند البيت- سلى جزور فقال: (اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف).

ودعا بذلك أيضًا بالمدينة.

فقد روي أنه - عليه الصلاة والسلام - مكث شهرًا إذا رفع رأسه من الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله سمع الله لمن حمده يقول: (اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين بمكة اللهم اشدد وطأتك) الخ ، وربما فعل ذلك بعد رفعه من الركعة الأخيرة من صلاة العشاء ، وكلتا الروايتين ذكرهما برهان الدين الحلبي في سيرته.

والكثير على أنه الجوع الذي أصابهم من منع ثمامة الميرة عنهم ، وذلك أن ثمامة بن أثال الحنفي جاءت به إلى المدينة سرية محمد بن مسلمة حين بعثها - صلى الله عليه وسلم - إلى بني بكر ابن كلاب ، فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثة أيام ، ثم خرج معتمرًا فلما قدم بطن مكة لبى ، وهو أول من دخلها ملبيًا ، ومن هنا قال الحنفي:

ومنا الذي لبى بمكة معلنًا   برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم

فأخذته قريش فقالوا : لقد اجترأت علينا ، وقد صبوت يا ثمامة ، قال: أسلمت واتبعت خير دين دينَ محمد - صلى الله عليه وسلم - والله لا يصل إليكم حبة من اليمامة-وكانت ريفًا لأهل مكة-حتى يأذن فيها رسول الله- صلى الله عليه وسلم.

ثم خرج ثمامة إلى اليمامة ، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا حتى أضرَّ بهم الجوع ، وأكلت قريش العلهز ، فكتبت قريش إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وأنت قد قطعت أرحامنا، فكتب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إلى ثمامة - رضي الله تعالى عنه (خل بين قومي وبين ميرتهم) ففعل [١]

---

١) الاستيعاب لابن عبد البر ٢١٥/١ . الإكمال لابن ماكولا ٣٨٩/٢. ط١ دار الكتب العلمية .

وفي رواية أن أبا سفيان جاءه صلى الله عليه وسلم فقال ألست الخ [(١)]

ووجه الجمع ظاهر [(٢)]

وكان هذا قبل الفتح بقليل ، وعندي أنه بعيد هذا القول ، كما لا يخفى [(٣)]

نعم أخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس ما هو نص في أن قصة ثمامة سبب لنزول قوله تعالى﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ إلى آخره ، فيكون الجوع مرادًا من العذاب المذكور فيه على ذلك.

ولا يرد على مَن قال به قولُه تعالى ﴿فما استكانوا﴾ فما خضعوا بذلك لربهم ؛لأن له أن يقول : المراد بالخضوع له عز وجل: الإنقياد لأمره سبحانه والإيمان به جل وعلا، وما كان منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منه في شيء.

والمشهور أن المراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر [(٤)]

وقال الثعالبي في تفسيره عند قوله تعالى

١) تفسير القرطبي ١٢/١٤٣.تفسير الطبري ١٨/٤٥.

٢) يعني بتكرر الحادثة

٣) يريد أن هذا القول بعيد ؛ لأن القصة في مكة قبل الهجرة ، وفتح مكة كان في السنة الثامنة للهجرة

٤) روح المعاني للآلوسي ١٨ /٥٤-,٥٥

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾

قال : ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لو زال عنهم القحط ، ومنّ الله عليهم بالخصب ، ورحمهم بذلك لبقوا على كفرهم ولجوا في طغيانهم ، وهذه الآية نزلت في المدة التي أصاب فيها قريشا السنون الجدبة والجوع الذي دعا به النبي – صلى الله عليه وسلم – في قوله: (اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف) الحديث.

ولقد ﴿أخذناهم بالعذاب﴾ قال ابن عباس وغيره: هو الجوع والجدب حتى أكلوا الجلود وما جرى مجراها.

وروى أنهم لما بلغهم الجهد ركب أبو سفيان وجاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بالمدينة فقال : يا محمد ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال (بلى) قال: قد قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ، وقد أكلنا العلهز، فنزلت الآية:....

(واستكانوا): معناه تواضعوا وانخفضوا.

وقوله سبحانه: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد﴾ الآية ، وَعَد بعذاب غير معين ، وهذا هو الصواب

وهذه المجاعة إنما كانت بعد وقعة بدر ،

والمبلس: الذي قد نزل به شَر ويئس من زواله ونَسْخِه بخير[1]

وبين الشوكاني في فتح القدير عند تفسيره لسورة قريش حال المشركين من أهل مكة ، كما بين كيفية إنعام الله تعالى عليهم فقال:

فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف في الجاهلية والإسلام.

قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة ، وكانت لهم رحلتان في كل سنة : رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها - أي بمكة - مقام ، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرف ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ أمرهم سبحانه بعبادته، بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم: أي إن لم يعبدوه لِسائر نعمه؛ فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة.

والبيت : الكعبة ، وعرَّفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها .

وقيل : لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك تذكيرًا لنعمته.

١) تفسير الثعالبي ٣/١٠٢-١٠٣ .

﴿الذي أطعـمـهم من جـوع﴾ أي أطعـمـهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما.

وقـيل : إن هـذا الإطعـام هو أنهم لما كـذبوا النبـي - صلى الله عليـه واله وسلم - دعـا عليـهم فـقـال: (اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) فاشتد القحط ، فقالوا : يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون ، فدعا ، فأخصبوا وزال عنهم الجوع وارتفع القحط ﴿وآمنهم من خوف﴾ أي من خوف شديد كانوا فيه.

قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ، ويسبي بعضها بعضًا ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم.
وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : أمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

﴿الذي أطعـمـهم من جـوع﴾ يعني قـريشـا أهل مكة بدعوة إبرهيم حيث قال:

﴿وارزق أهله من الثمرات﴾.

﴿وآمنهم من خوف﴾ حيث قال إبراهيم: ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾.

وعن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ ويحكم يا قريش اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف.

وقال الشوكاني أيضًا: وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لإيلاف قريش﴾ قال: نعمتي على قريش ﴿إيلافهم﴾ رحلة الشتاء والصيف، كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ قال: الكعبة ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال: الجذام.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه ﴿لإيلاف قريش إيلافهم﴾ قال: لزومهم

﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ يعني قريشًا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال:

﴿وارزق أهله من الثمرات﴾

﴿وآمنهم من خوف﴾ حيث قال إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾

وقال: وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضًا في قوله: ﴿لإيلاف قريش﴾ الآية قال: نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت، وكفاهم المؤونة، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، ولم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع، وآمنهم من خوف، فألفوا الرحلة، وكان ذلك من نعمة الله عليهم.

وأخرج ابن جرير عنه أيضًا في الآية قال: أمروا أن

يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف ، وقد وردت أحاديث في فضل قريش وإن الناس تبع لهم في الخير والشر ، وأن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنان وهي في دواوين الإسلام[1]

﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ الجنة: البستان[2] المشتمل على أنواع الثمار والفواكه[3] جنات وزروع ونخيل[4] قال مجاهد : كان حرثهم عنبًا[5] ورثوا من أبيهم ضيعة[6] وقد انتهت واستحقت أن تجذ[7]

والألف واللام في (الجنة) ليست للعموم ، ولا هي للمعهود اللفظي[8] لأنه لم يتقدم معهود لفظي ، وإنما هي للمعهود الذهني[9] الذي دل عليه السياق،

---

١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٩٨ - ٤٩٩. وانظر صحيح البخاري ١٢٨٩/٣ . مناقب قريش . صحيح مسلم ١٤٥٢/٣ : ما بقي منهم اثنان . و. ١٧٨٢/٤ .اصطفاء قريش. سنن الدارمي ٣١٥/٢.

٢) تفسير البيضاوي ٣٧١/٥ . تفسير الطبري ٢٩/٢٩ .

٣) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

٤) تفسير الشوكاني ٥/ ٢٧١.

٥) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

٦) تفسير الشوكاني ٢٧١/٥ .

٧) البداية والنهاية ١٢٠/٢ ؟

٨) أي ليست للعهد الذكري .

٩) لأنها كانت معروفة عندهم ، كما تقدم .

وهـــــو البستان[1]

﴿ أقسموا ﴾ حلفوا فيما بينهم[2] فتحالفوا بينهم يومًا ليغدُونَّ غدوة قبل خروج الناس فليصرمُنَّ نخلهم ولم يستثنوا[3]

﴿ليصرمنها ﴾ ليقطعنها[4] ليجذن ثمرها ليلا ؛ لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقون منه بشيء[5] ومنه قول امرئ القيس[6] :

صرمتك بعد تواصل دعد وبدا لدعد بعض ما يبدو[7]

﴿مصبحين﴾ داخلين في الصباح[8] أو في أول الصباح وقد بقيت من الليل ظلمة لئلا يبقى للمساكين شيء[9]

وانتصاب ﴿مصبحين﴾ على الحال من فاعل ﴿ليصرمنها﴾ ، والكاف في ﴿كمابلوناهم﴾ نعت مصدر

---

١) انظر البداية والنهاية ٧٦/١ .

٢) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ . تفسير الطبري ٢٩/٢٩ . زاد المسير ٣٣٥/٨ .

٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

٤) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . تفسير الطبري ٢٩/٢٩: الصرم : القطع .

٥) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

٦) امرئ القيس نحو ١٣٠-٨٠ق.هـ

امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي أشهر شعراء العرب ، يماني الأصل ، ولد بنجد ، ومات بأنقرة مقروحًا.

الأغاني للأصفهاني ٧٧/٩. شرح شواهد المغني ص٦.

٧) تفسير الطبري ٢٩/٢٩ .

٨) تفسير البيضاوي ٣٧١/٥. تفسير الطبري ٢٩/٢٩ : إذا أصبحوا . البداية والنهاية ١٢٠/٢ . تفسير أبي السعود ١٤/٩.

٩) زاد المسير ٣٣٦,/٨

محذوف: أي بلوناهم ابتلاء كما بلونا.

وما مصدرية بمعنى الذي.

وإذ ظرف لبلونا منتصب به.

و﴿ ليصرمنها ﴾ جواب القسم ﴿ولا يستثنون﴾

﴿ ولا يستثنون ﴾ يعني : ولا يقولون إن شاء الله ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم أو حال[1] .

أي : ولا يقولون إن شاء الله ، وإنما سماه استثناء لما فيه من الإخراج ، غير أن المخرج خلاف المذكور ، والمخرج بالاستثناء عينه ، أو لأن معنى لا أخرج إن شاء الله ، ولا أخرج إلى أن يشاء الله واحد ، أو لا يستثنون حصة المساكين كما كان يخرج أبوهم[2] أو لا يستثنون فيما حلفوا به ، ولذلك حنثهم الله في أيمانهم فقال تعالى: ﴿فطاف عليها طائف﴾[3]

قال ابن كثير: ولم يستثنوا في يمينهم فعجزهم الله ، وسلط عليها الآفة التي أحرقتها ، وهي السفعة التي اجتاحتها ولم تبق بها شيئًا ينتفع به[4]

---

١) تفسير الشوكاني ٢٧١/٥.

٢) تفسير البيضاوي ٣٧١/٥. زاد المسير ٣٣٥/٨.تفسير أبي السعود ١٤/٩ . تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩

٣) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ . تفسير الطبري ٢٩ /٢٩ ولا يقولوا إن شاء الله .

٤) البداية والنهاية ١٢٠/٢. والسفعة : وزان غرفة ، سواد مشرب بحمرة ، المصباح المنير ٢٩٩/١.

وجملة (ولا يستثنون) مستأنفة [1]

﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أنزل الله عليها نارًا فأحرقتها [2] أو أصابتها آفة سماوية ،

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ: (إياكم والمعاصي ، إن العبد ليذنب الذنب ، فيحرم به رزقًا قد كان هيء له ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾ [3] قد حرموا خير جنتهم بذنبهم [4] وجملة (وهم نائمون) في محل نصب على الحال [5]

وقال ابن جريج [6] عن الطائف الذي أحرق جنتهم : عنق من النار خرجت من وادي جهنم [7]

وقيل : هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء كذا قال مقاتل[8]

---

١) تفسير أبي السعود ٩/ ١٤.

٢) تفسير الواحدي ١١٢٢/٢ .تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

٣) تفسير القرطبي ٢٤٤/١٨ سواء . الدر المنثور ٢٥١/٨ .والفردوس بمأثور الخطاب لشيرويه ١/ ٢٨٣ ذكره موقوفا على ابن مسعود .

٤) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

٥) تفسير الشوكاني ٢٧١/٥.

٦) ابن جريج٨٠-١٥٠هـ

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، أبو الوليد ، إمام الحجاز في عصره ، أول من صنف التصانيف في مكة . تذكرة الحفاظ للذهبي ١٧٠/١ . صفة الصفوة لابن الجوزي ١٢٢/٢.

٧) الدر المنثور للسيوطي ٣٥١/٨.

٨) مقاتل ت.سنة ١٥٠هـ

مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء ، البلخي ، أبو الحسن ، من أعلام المفسرين ، من كتبه التفسير الكبير ، ونوادر التفسير .

وفيات الأعيان ١١٢/٢ . تهذيب التهذيب لابن الكمال ١٠-٢٧٩

وقيل : الطائف جبريل اقتلعها [1]

قال الطبري : فطرق جنة هؤلاء القوم ليلا طارق من أمر الله وهم نائمون ، ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا ليلا ، ولا يكون نهارًا ، وقد يقولون أطفت به نهارا ، وذكر الفراء [2] أن أبا الجراح [3] أنشده :

أطفت بها نهارا غير ليل وألهى ربها طلب الرخال [4]

والرخال : هي أولاد الضأن الإناث [5] وقرئ: طيف من ربك أي مبتدأ من جهته تعالى [6]

﴿من ربك﴾ أي من أمر ربك [7]

﴿وهم نائمون﴾ غافلون عما جرت به المقادير [8]

﴿كالصريم﴾ قال الطبري : اختلف أهل التأويل في الذي عنى بالصريم:

---

1) تفسير الشوكاني ٢٧١/٥ . .

2) الفراء ١٤٤- ٢٠٧هـ

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي ، مولى بني أسد ، أبو زكريا ، إمام الكوفيين ، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وكان فقيها متكلما . من كتبه المقصور والممدود ، والمعاني .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢٨/٢ . الفهرست لابن النديم ٦٦-٦٧.

3) لم أجده .

4) لم أجده . وانظر الرخال في الوسيط ٣٣٦/١ (رخل)

5) تفسير الطبري ٢٩ / ٣٠ . تفسير البيضاوي ٣٧١/٥: بلاء من ربك ، مبتدأ منه وهم نائمون .

6) تفسير أبي السعود ١٤/٩.

7) زاد المسير ٨/ ٣٣٥.

8) تفسير أبي السعود ١٤,/٩

فقال بعضهم : عنى به الليل الأسود.

وقال بعضهم : معنى ذلك: فأصبحت جنتهم محترقة سوداء كسواد الليل المظلم البهيم. وقال آخرون : بل معنى ذلك فأصبحت كأرض تدعى الصريم ، معروفة بهذا الاسم قال سعيد بن جبير [1] : هي أرض باليمن ، يقال لها ضروان من صنعاء على ستة أميال [2] أي كالبستان الذي صرم ثماره ، بحيث لم يبق منه شيء، فعيل، بمعنى مفعول ، أو كالليل باحتراقها واسودادها ، أو كالنهار بابيضاضها من فرط اليبس ، سميا بالصريم ؛ لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه ، أو كالرمل [3]

وقال الفراء : كالصريم كالليل المظلم ، ومنه قول الشاعر :

تطاول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم

والمعنى أنها أحرقت فصارت كالليل الأسود.

قال : والصريم الرماد بلغة خزيمة.

---

١) سعيد بن جبير ٤٥-٩٥هـ .

هو الأسدي مولاهم ، الكوفي ، أبو عبد الله : تابعي ، كان أعلمهم على الإطلاق ، قال أحمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠٤/١ . طبقات ابن سعد ١٧٨/٦.

٢) تفسير الطبري ٣١/٢٩.باختصار . تفسير الواحدي ١١٢٢/٢ :كالليل المظلم سوداء . تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩. وقال الحسن : صرم منها الخير فليس فيها شيء .

٣) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥. وانظر زاد المسير ٣٣٦/٨. تفسير أبي السعود ١٥,/٩

وقال الأخفش[1] : هي كالصبح انصرم من الليل ، يعني أنها يبست وابيضت.

وقال المبرد[2] : الصريم الليل ، والصريم النهار أي ينصرم هذا عن هذا وذاك عن هذا ، وقيل سمي الليل صريمًا ؛ لأنه يقطع بظلمته عن التصرف.

وقال المؤرج[3] : الصريم الرملة ؛ لأنها لا يثبت عليها شيء ينتفع به.

وقال الحسن: صرم منها الخير أي قطع[4] وهذه معاملة بنقيض المقصود[5]

﴿فتنادوا مصبحين﴾ أي لما كان وقت الصباح ، نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجذاذ : أي القطع[6].أي

---

١) الأخفش ت.سنة ٣١٥هـ

علي بن سليمان بن الفضل الأخفش الصغير ، البغدادي ، أبو الحسن النحوي ، إخباري لغوي له : التثنية والجمع ، وشرح كتاب سيبويه في النحو

الوافي بالوفيات للصفدي ١٢/٧٣-٧٤. طبقات النحاة واللغويين ٤٢٣- ٤٢٤.

٢) المبرد ٢١٠-٢٨٦هـ

محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي ، أبو العباس ، إمام العربية ببغداد في زمانه ، له: المذكر والمؤنث ، والمقتضب .

بغية الوعاة ١١٦ ، وفيات الأعيان ٤٩٥/١.

٣) المؤرج المتوفى سنة (١٩٥هـ)

مؤرج بن عمرو بن الحارث ، من بني سدوس بن شيبان ، أبو فيد ، عالم بالعربية ، والأنساب له جماهير القبائل ، والأمثال .

وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٠/٢ .بغية الوعاة ص٤٠٠.

٤) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥. زاد المسير ٣٣٦/٨. تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ذكر كلام الأخفش ثم قال : وقال ابن عباس : كالرماد الأسود بلغة خزيمة .

٥) البداية والنهاية ١٢٠/٢. تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤

٦) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤. زاد المسير ٣٣٦/٨.تفسير أبي السعود ١٥/٩.

داخلين في الصباح [1]

﴿أنْ﴾ أن اخرجوا، أو بأن اخرجوا [2]

(قلت) أن اغدوا فهي مفسرة ، وبأن اغدوا فهي مصدرية [3]

﴿اغدوا﴾ اخرجوا غدوة [4] .

والغدوة : ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس ، والجمع غُدَى مثل مدية ومدى ، هذا أصله ثم كثر حتى استعمل في الذهاب والانطلاق أي وقت كان [5]

﴿على﴾ تعدية الفعل بعلى : إما لتضمنه معنى الإقبال أو بتشبيه الغدو للصرام بغدو العدو المتضمن معنى الاستعلاء [6] .

لكن قال الشوكاني [7] : والغدو يتعدى بإلى وعلى، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، قال: وجواب

---

١) تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤.

٢) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥. تفسير أبي السعود ١٥/٩.

٣) انظر تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥

٤) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥.

٥) المصباح المنير للفيومي ٢/ ٩٥-٩٦. (غدا) .

٦) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥.تفسير أبي السعود ١٥/٩.

٧) الشوكاني ١١٧٣- ١٢٥٠هـ

محمد بن علي بن محمد اليمني ، فقيه مجتهد ، نشأ بصنعاء وولي قضاءها وله ١١٤ مؤلفاً .

البدر الطالع للشوكاني ٢١٤/٢-٢٢٥.

الشرط محذوف ، أي إن كنتم صارمين فاغدوا[1]

﴿حرثكم﴾ قال مجاهد[2] : كان حرثهم عنبًا[3]

وقال البغوي : الثمار والزروع والأعناب[4]

﴿إن كنتم صارمين﴾ أي تريدون الصرام[5] صارمين قاطعين له[6] صارمين : حاصدي زرعكم[7] .

وقيل معنى صارمين : ماضين في العزم ، من قولك سيف صارم[8]

والمعنى : فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضًا قائلين: اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ، ويكثر السؤال[9] فغدا القوم في سدفة من الليل[10] على جنتهم ليصرموها[11]

---

١) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥.

٢) مجاهد ٢١-١٠٤هـ

مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج ، المكي تابعي شيخ القراء والمفسرين العالم الحبر .

حلية الأولياء ٣/ ٢٧٩ ترجمة ٢٤٣ . صفة الصفوة ١٢٣/٢ .

٣) تفسير الطبري ٢٩/٢٩.

٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠.ثم ذكر النخل فقال صارمين قاطعين للنخل .

٥) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤.

٦) تفسير البيضاوي ٥ /٣٧٢.

٧) تفسير الطبري ٢٩/٢٩.

٨) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥ . تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤

٩) البداية والنهاية ١٢٠/٢

١٠) السدفة من الليل : الظلمة ، والطائفة من الليل ، أو اختلاط الضوء والظلمة معا كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار . المعجم المحيط ١/ ٤٢٣ مادة (سدف).

﴿يتخافتون﴾ أي يتناجون فيما بينهم، بحيث لا يُسمِعون أحدًا كلامهم ، ثم فسر الله – سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى – ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى: ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾أي يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم(١)

قال البيضاوي : يتخافتون يتشاورون فيما بينهم ،

وخفي وخفت وخفد بمعنى الكتم ، ومنه الخفدود: الخفاش (٢)

وقال الشوكاني : يقال خفت يخفت : إذا سكن ولم ينبس، ومنه قول دريد بن الصمة (٣)

وإني لم أهلك ملالا ولم أمت خفاتا وكلا ظنه بي عويمر

وقيل المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد،

١) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤. تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥ . وانظر الدر المنثور ٨/ ٢٥٢.

٢) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥. زاد المسير ٣٦٦/٨ ابن قتيبة : يتساررون . تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤.تفسير أبي السعود ١٥/٩. تفسير الواحدي ١١٢٢/٢.

والخفاش : حيوان ثديي يطير ، وجسمه يشبه جسم الفأر ، وتتركب أجنحته من جلد منبسط رقيق ، يمتد بين الأطراف الأمامية والخلفية ، وينام طول الشتاء . دائرة معارف الناشئين ١٤٨.

٣) دريد بن الصمة المتوفى سنة (٨هـ)

الجشمي البكري ، من هوازن ، شجاع من الأبطال ، من الشعراء المعمرين في الجاهلية غزا نحو مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها ، الأغاني ٣/١٠-٤٠. وشرح الشواهد ,٣١٧

والأول أولى - وهو أنهم يسرون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم - لقوله: ﴿أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ ، فإن أن هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول ، والمعنى يسر بعضهم إلى بعض هذا القول ، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم[1]

وقال قتادة : فانطلقوا ، فمضوا إلى حرثهم وهم يتسارون بينهم[2]

﴿أن﴾ أن مفسِّرة ، وقرئ بطرحها على احتمال القول والمراد بنهي المساكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينهم من الدخول كقولهم : لا أرينك ها هنا[3]

﴿حرد﴾ فيه ثمانية أقوال بل أكثر:

أحدها : على قدرة ، قاله ابن عباس.

والثاني : على فاقة ، قاله الحسن في رواية.

والثالث : على جد ، قاله الحسن في رواية ، وقتادة ، وأبو العالية[4] والفراء ومقاتل

والرابع: على أمر مجمع قد أسسوه بينهم ، قاله

---

١) تفسير الشوكاني ٥/٢٧٢.

٢) تفسير الطبري ٢٩/٣١ .

٣) تفسير البيضاوي ٥/٣٧٢. تفسير أبي السعود ٩/١٥,

٤) أبو العالية المتوفى سنة (٩٠هـ)

رفيع بن مهران الرياحي ، ثقة كثير الإرسال . تقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٢٥٢ ترجمة ١٠٥ .

مجاهد ، وعكرمة.

والخامس : أن الحرد اسم الجنة ، قاله السدي ،

والسادس : أنه الحنق والغضب على المساكين ، قاله الشعبي ، وسفيان [1] وأنشد أبو عبيد [2] :

أسود شرى لاقت أسودًا خفية

تساقوا على حرد دماء الأساود

والسابع : أنه المنع ، مأخوذ من حارَدَت السَّنَة فليس فيها مطر ، وحاردت الناقة فليس فيها لبن ، قاله أبو عبيدة [3] وابن قتيبة [4]

والثامن: أنه القصد ، يقال حَرَدت حردك: أي قصدت

---

١) سفيان الثوري ٩٧-١٦١هـ

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث ، له الجامع الكبير ، والجامع الصغير في الحديث ،

الفهرست لابن النديم ٢٢٥/١ . الجواهر المضية ٢٥٠/١.

٢) أبو عبيد ١٥٧- ٢٢٤.

القاسم بن سلام البغدادي القاضي ، أحد الأعلام ، قال ابن راهويه : أبو عبيد أوسعنا علمًا ، وأكثرنا أدبًا ، وأكثرنا جمعًا ، إنا نحتاج إلى أبي عبيد ، وأبو عبيد لا يحتاج إلينا .

طبقات الحفاظ ص١٨٢ ترجمة ٤٠٣. تهذيب التهذيب ١٤٥/١٥ ترجمة ٥٣٧٨.

٣) أبو عبيدة ١١٠-٢٠٩هـ

معمر بن المثنى التيمي بالولاء ، من أئمة العلم بالأدب واللغة ، قال الجاحظ لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه . ولد وتوفي بالبصرة . له نحو من (٢٠٠) مائتي مؤلف .

وفيات الأعيان ١٠٥/٢. بغية الوعاة ٣٩٥.

٤) ابن قتيبة ٢١٣-٢٧٦هـ

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، أبو محمد ، من أئمة الأدب ، من المكثرين من التصنيف ، ولد وتوفي ببغداد ، له تأويل مختلف الحديث ، وأدب الكاتب .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥١/١ .لسان الميزان ٣٥٧/٣.

قصدك ، حكاه الفراء وابو عبيد وابن قتيبة ، وأنشدوا :

قد جاء سيل كان من أمر الله

يحـرد حـــرد الجنـــة المـغلـه

أي يقصد قصدها

قال ابن قتيبة : وفيها لغتان : حَرَدٌ وحَرْدٌ ، كما يقال: الدَرَكٌ والدَرْكٌ [1]

قال ابن الأعرابي [2] : والسكون أكثر [3]

(قلت):

والتاسع : على حرد أي على نكد .

والمعنى : أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين فتنكد عليهم بحيث لا يقدرون على الانتفاع ، وقيل الحَرَد بمعنى الحَـرْد ، وقـرئ به ، أي لم يقـدروا إلا على حنق بعـضـهم لبعض كقوله يتلاومون.

وقيل الحـرد : القـصـد والسـرعـة ... أي اغـدوا إلى

---

١) زاد المسير ٣٣٨/٨.

٢) ابن الأعرابي ١٥٠-٢٣١هـ

محمد بن زياد ، أبو عبد الله ، راوية ، ناسب ، عارف باللغة ، كان يحضر مجلسه نحو مائة إنسان ، له تصانيف كثيرة منها أسماء الخيل وفرسانها ، وتأريخ القبائل .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٩٢/١/ تأريخ بغداد للخطيب ٢٨٢/٥.

٣) المصباح المنير ١/ ١٣٩ (حرد)

جنتكم بسرعة [1]

(قلت): وعلى هذا يكون العاشر: السرعة.

قال ابن كثير : وغدوا على حرد أي قوة وشدة.

وقال مجاهد : على حرد : على جد.

وقال عكرمة: على غيظ.

وقال الشعبي [2]: على حرد على المساكين.

وقال السدي على حرد أي كان اسم قريتهم حرد، فأبعد السدي في قوله [3].

ونقل الشوكاني عن السدي أن (حرد) اسم لجنتهم [4]

﴿قادرين﴾ فيها ثلاثة أقوال:

---

١) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥. تفسير الواحدي ١١٢٢/٢ : قصد وجد .

٢) الشعبي ١٩-١٠٣هـ

عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يضرب المثل بحفظه ، وهو ثقة .

تأريخ بغداد للخطيب ١٢/ ٢٢٧ .وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٤٤/١.

٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧. وفي تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥ معان كثيرة للحرد . البداية والنهاية ١٢٠/٢. تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤

٤) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥. وقد جمع البغوي في تفسيره ٤/ ٣٨٠ .هذه الأقوال وغيرها فقال : وغدوا على حرد ، الحرد في اللغة يكون بمعنى القصد ، والمنع ، والغضب ، قال الحسن وقتادة وأبو العالية : على جد وجهد ، وقال القرظي ومجاهد وعكرمة : على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم ، وهذا على معنى القصد ؛ لأن القاصد إلى الشيء جاد مجمع على الأمر ، وقال أبو عبيدة والقتيبي : غدوا من بيتهم على منع المساكين ، يقال حاردت السنة إذا لم يكن لها مطر ، وحاردت الناقة إذا لم يكن لها لبن ، وقال الشعبي وسفيان على حنق وغضب من المساكين ، وعن ابن عباس على قدرة قادرين .

أحدها : قادرين على جنتهم عند أنفسهم ، قاله قتادة

والثاني : قادرين على المساكين ، قاله الشعبي.

والثالث : أن المعنى منعوا وهم قادرون أي واجدون ، قاله ابن قتيبة [1] أي عليها فيما يزعمون ويرومون [2] .

ويحتمل أن يكون من التقدير [3] الذي هو تضييق ، كأنهم قد قدروا على المساكين أي ضيقوا عليهم [4]

قال أبو السعود في تفسيره : والمعنى أنهم أرادوا أن يتنكدوا على المساكين ويحرموهم ، وهم قادرون على نفعهم، فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان ، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين ، فتعجلوا (لأنفسهم) الحرمان والمسكنة ، أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين ، بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها ، أي غدوا حاصلين على النكد والحرمان ، مكان كونهم قادرين على الانتفاع.

وقيل الحَرْدُ الحَرَدُ ، وقد قرىء بذلك ، أي لم يقدروا إلا على حنق بعضهم لبعض ، لقوله تعالى (يتلاومون).

وقيل الحرد: القصد والسرعة ، أي غدوا قاصدين

---

١) زاد المسير ٣٣٨/٨. انظر تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠

٢) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤. تفسير الطبري ٣٢/٢٩: أي قادرين عليه في أنفسهم .

٣) على حَد قوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه)

٤) تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤

إلى جنتهم بسرعة ، قادرين عند أنفسهم على صرامها.

وقيل هو علم للجنة [1] أي اسم للجنة نفسها.

﴿فلما رأوها﴾ أول ما رأوها قالوا [2] أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا وهي على الحالة التي قال الله - عز وجل - قد استحالت على [3] تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها فاعتقدوا أنهم أخطئوا الطريق ، ولهذا قالوا إنا لضالون [4]

﴿إنا لضالون﴾ فلما صار هؤلاء القوم إلى جنتهم ورأوها محترقا حرثها ، أنكروها وشكوا فيها ، هل هي جنتهم أو لا ؟ فقال بعضهم لأصحابه ظنا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم ، وأن التي رأوها غيرها : إنا لضالون طريق جنتنا ، فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق بل نحن أيها القوم محرومون [5]

قال ابن كثير : فلما رأوها أي وصلوا إليها ، ونظروا ما حل بها ، وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك

---

١) تفسير أبي السعود ١٥/٩. تفسير الواحدي ١١٢٢/٢ .قادرين عند أنفسهم على ثمر الجنة .

٢) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥ .وانظر تفسير الطبري ٣٤/٢٩. زاد المسير ٣٦٦/٨ - ٣٦٧ذكر ثمانية معانٍ. تفسير أبي السعود ١٥/٩ :قالوا في بديهة رؤيتهم .

٣) لعل الصواب (عن) .

٤) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤.

٥) تفسير الطبري ٢٩/ ٣٤. تفسير البيضاوي ٥/ ٣٧٢ .تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤. انظر تفسير البغوي ٤/ ,٣٨٠

النضرة والحسن والبهجة ، فانقلبت بسبب النية الفاسدة ، فعند ذلك قالوا: إنا لضالون أي قد تهنا عنها ، وسلكنا غير طريقها ، ثم قالوا : بل نحن محرومون ، أي بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا ، وحرمنا بركة حرثنا [1]

﴿بل نحن محرومون ﴾ بعد أن تأملوا الطريق وعرفوا أنها هي قالوا:

بل نحن محرومون ، حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا [2] أي بل هذه هي ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب[3] . أو قال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق بل نحن أيها القوم محرومون : حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها ، قال قتادة : بل جوزينا فحرمنا [4] فبل هنا للإضراب، أي فأضربوا عن قولهم الأول إلى هذا القول[5]

﴿قال أوسطهم﴾ يعني أمثلهم وأعقلهم وخيرهم [6] قال ابن عباس: أعدلهم ويقال قال: خيرهم.

وقال في سورة البقرة : وكذلك جعلناكم أمة وسطًا،

١) البداية والنهاية ١٢٠/٢ .الدر المنثور ٢٥٢/٨ . تفسير أبي السعود ١٦/٩ . تفسير الواحدي ١١٢٢/٢مخطئون طريقنا وليست هذه جنتنا .

٢) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . تفسير الواحدي ١١٢٢/٢ . انظر تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠ .

٣) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤

٤) تفسير الطبري ٣٤/٢٩ .الدر المنثور ٢٥٢/٨ .

٥) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥ .تفسير أبي السعود ١٦،/٩

١) تفسير الشوكاني ٥/،٢٧٢

قال : الوسط العدل ، وقاله مجاهد ، وسعيد بن المسيب[(١)] والضحاك[(٢)]

وقال قتادة : قال أوسطهم أي أعدلهم قولا ، وكان أسرع القوم فزعًا ، وأحسنهم رجعة : ألم أقل لكم لولا تسبحون[(٣)] ، أو أعدلهم رأيًا وسنًا[(٤)]

قال الثعالبي : أعدلهم قولا وعقلا وخلقًا[(٥)] ويبدو أنه كان له رأي غير رأيهم ، ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد في رأيه ، ولم يصر على الحق الذي رآه ، فناله الحرمان الذي نالهم ، ولكنه يذكِّرُهم ما كان من نصحه وتوجيهه[(٦)]

قال البيضاوي - وهو يعدد آراء القوم - : ومنهم من سكت راضيًا ومنهم أنكره[(٧)] وهذا يدل على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه[(٨)]

---

١) سعيد بن المسيب ١-٩٤هـ

سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب ، المخزومي القرشي ، أبو محمد ، سيد التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة . وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠٦/١ .صفة الصفوة لابن الجوزي ٤٤/٢ .

٢) الضحاك المتوفى ١٠٥هـ

الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي الخراساني أبو القاسم ، مفسر ، كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي يدرسهم القرآن الكريم ، له كتاب في التفسير . العبر في خبر من غبر للذهبي ١٢٤/١ تقريب التهذيب لابن حجر ٣٧٣/١ ترجمة ١٧ .

٣) تفسير الطبري ٣٤/٢٩-٣٥. تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤: نقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير والربيع بن أنس والضحاك وقتادة : أي أعدلهم وخيرهم .الدر المنثور ٢٥٢/٨. تفسير الواحدي ١١٢٣/٢.

٤) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٧٣. تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥ . تفسير أبي السعود ١٦/٩

٥) تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤

٦) في ظلال القرآن سيد قطب ٦/ ٣٦٦٦.

٧) تفسير البيضاوي ٥/, ٣٧٣

٨) تفسير الشوكاني ٥/ , ٢٧٣

وكل شيء في كتاب الله أوسط فهو أعدل [1]

﴿ ألم أقل ﴾ استفهام تقريري ، أي اعترفوا أنني قلت لكم ذلك ، على حد قول الله تعالى: ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [2]

﴿ ألم أقل لكم لولا ﴾ لولا أي هلا [3] فتكون للتحضيض.

﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وقد قاله حينما عزموا على ذلك ، ويدل على هذا المعنى ، قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، أي لولا تستثنون ، فسمي الاستثناء تسبيحًا لتشاركهما في التعظيم ، أو لأنه تنزيه على أن يجري في ملكه ما لا يريده [4]

وقيل معناه : ألم أقل لكم لولا تسبحون أي فهلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم [5] .

وكان بعضهم يتأول قول الله تعالى: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ لولا تستثنون، وزعم أن ذلك لغة لبعض أهل

---

١) الدر المنثور ٢٥٢/٨.

٢) الآية ٦١ سورة يس .

٣) تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥.

٤) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٧٣. تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ : قال مجاهد والسدي وابن جريج : لولا تسبحون أي لولا تستثنون ، قال السدي : وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحًا ، وقال ابن جرير: هو قول القائل : إن شاء الله . تفسير أبي السعود ١٦/٩

٥) تفسير ابن كثير ٤٠٧,/٤

اليمن ، ويستشهد لصحة تأويله بقوله : إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، قال : قال أوسطهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون ، فذكرهم تركهم الاستثناء[(١)]

قال مجاهد وأبو صالح[(٢)] وغيرهما : كان استثناؤهم تسبيحًا.

قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله - عز وجل - فجعل التسبيح في موضع إن شاء الله.

وقيل : المعنى هلا تستغفرون الله من فعلكم ، وتتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك ، وبعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة قالوا: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين[(٣)]

قال أبو السعود : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وقد كان

---

١) تفسير الطبري ١/١٥.

٢) أبو صالح المتوفى بعد المائة هـ

باذام ، أبو صالح مولى أم هانئ راوي التفسير ، يروي عن مولاته ، ضعيف مدلس . تقريب التهذيب لابن حجر ٩٣/١ ترجمة ٢ . الخلاصة للأنصاري ٥٤ .

٣) تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥. زاد المسير ٣٣٨/٨: لولا أي هلا تسبحون ، وفيه ثلاثة أقوال : أحدها : هلا تستثنون عند قولكم ليصرمنها مصبحين ، قاله ابن جريج والجمهور ، والمعنى هلا قلتم إن شاء الله ، قال الزجاج : وإنما قيل للاستثناء تسبيح؛ لأن التسبيح في اللغة تنزيه الله - عز وجل - عن السوء ، والاستثناء تعظيم لله وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلا إلا بمشيئة الله ، والثاني : أنه كان استثناؤهم قول سبحان الله قاله أبو صالح والثالث : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم حكاه الثعلبي .

قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله ، وتوبوا إليه عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فعيَّرَهم ، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ وقيل : المراد بالتسبيح الاستثناء ؛ لاشتراكهما في التعظيم أو لأنه تنزيه له تعالى عن أن يجري في ملكه مالا يشاؤه [1]

وقال البغوي: قال أوسطهم: أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون، هلا تستثنون، أنكر عليهم ترك الإستثناء في قولهم: ليصرمنها مصبحين، وسمي الاستثناء تسبيحًا؛ لأنه تعظيم لله وإقرار بأنه لا يقدر أحد على شيء إلا بمشيئته.

وقال أبو صالح: كان استثناؤهم سبحان الله.

وقيل: هلا تسبحون الله ، وتقولوا سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم.

وقيل : هلا تستغفرونه من فعلكم [2]

﴿قالوا سبحان ربنا﴾ أي تنزيهًا له عن أن يكون ظالمًا فيما صنع بجنتنا ، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه.

وقيل: معنى تسبيحهم الاستغفار، أي نستغفر الله من

---

١) تفسير أبي السعود ٩/١٦ .تفسير الواحدي ٢/١١٢٣.

٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠ .

ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين[1] أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا: إنا كنا ظالمين[2]

﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ أصل الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وفي المثل (من استرعى الذئب فقد ظلم)[3]

وقيد هذا التعريف ابنُ فارس بالتعدِّي ، فقال : وضع الشيء في غير موضعه تعدِّيًا [4]

﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ يلوم بعضهم بعضًا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب [5] فإن منهم من أشار بذلك ، ومنهم من استصوبه ، ومنهم من سكت راضيًا ، ومنهم من أنكره[6] وكما يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة، ويتوجه باللوم إلى الآخرين ، هاهم أولاء يصنعون (ذلك)[7] . أو يلوم بعضهم بعضًا على تفريطهم فيما فرطوا فيه من الاستثناء ، وعزمهم على ما كانوا عليه من ترك إطعام

---

١) تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥ . زاد المسير ٢٨/٨ . تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠ .

٢) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤

٣) المصباح المنير ٣٤/٢ . (ظلم)

٤) المقاييس في اللغة لابن فارس ، ص٦٤١ (ظلم) .

٥) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ . انظر تفسير الواحدي ١١٢٣/٢.

٦) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥ .تفسير أبي السعود ١٦،/٩

٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٦٦ . زاد المسير ٢٢٨/٨-،٣٣٩

المساكين من جنتهم [1]

﴿قــالوا يا ويلنــا﴾ ثم هاهم أولاء يتــركــون التـــلاوم ليعترفوا جميعًا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة ، عسى أن يغفر الله لهم ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والكيد والتدبير [2]

﴿ إنا كنا طاغين ﴾ أي اعتدينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا [3] أي ما أصابنا، أو مبعدين مخالفين أمر الله في تركنا الاستثناء والتسبيح [4]

طاغين: أي عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء

قال ابن كيسان [5] أي طغينا نِعَم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعــوا إلى الله وســألوه أن يعوضهم بخير منها فقالوا: عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله - عز وجل - أن يبدلهم جنة خيرًا من جنتهم ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيرًا منها﴾

---

١) تفسير الطبري ٣٥/٢٩.

٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٦٦

٣) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ .تفسير أبي السعود ١٦/٩.

٤) تفسير الطبري ٣٥/٢٩.

٥) ابن كيسان المتوفى سنة (١٤٠هـ)

صالح بن كيسان المدني ، مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز ، من فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه

تهذيب التهذيب ٣٩٩/٤. تهذيب ابن عساكر ٦/ ٣٧٨.

ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ، وقد روي أنهم أبدلوا خيرًا منها[1]

قال عبد الله بن مسعود : بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق ، فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منه عنقودًا واحدًا[2]

قيل إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا : إن أبدلنا الله خيرًا منها لنصنعن كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرعوا ، فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها.

قرأ الجمهور يبدلنا بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو[3] وأهل المدينة بالتشديد ، وهما لغتان ، والتبديل : تغيير ذات الشيء أو تغيير صفته ، والإبدال: رفع الشيء جملة ووضع آخر مكانه[4] (قلت) التبديل من بدَّل المضعف ، والإبدال من أبدل المزيد همزة في أوله.

---

١) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥. تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠ : ذكر قول ابن كيسان .

٢) تقدم ذلك عند الكلام عن الجنة ، وانظر تفسير البغوي ٤/ ٣٨١

٣) أبو عمرو ٧٠-١٥٤هـ

زبان بن عمار التميمي المازني البصري ، من أئمة اللغة والأدب ، وأحد القراء السبعة ،

وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٨٦/١.غاية النهاية ٢٨٨/١.

٤) تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥. وانظر القراءتين في تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥.زاد المسير ٣٣٩/٨: فبدلهم الله جنة العنقود منها وقر بغل ، ثم ذكر القراءتين . تفسير أبي السعود ١٦٠/٩,

﴿إلى﴾ لانتهاء الغاية ، أو لتضمنها معنى الرجوع [١]

(قلت) يعني انتهت غايتهم أن يبدلهم الله تعالى خيرًا منها ، أو يكون المعنى على الوجه الآخر إنا راجعون : أي منتهون في رجوعنا إلى الله تعالى.

﴿راغبون﴾ في أن يبدلنا خيرًا منها بتوبتنا من خطأ فعلنا الذي سبق منا ، إذ هلكت جنتنا [٢] أو راغبون طالبون الخير راجون عفوه راجعون إليه.

وعدي بإلى وهو إنما يتعدى بعن أو في لتضمينه معنى الرجوع [٣]

وقيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا.

وقيل احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة [٤]

﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة ، العذاب في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر أعظم منه [٥].

---

١) تفسير البيضاوي ٥/٣٧٣ .تفسير أبي السعود ٩/١٦ .قالوا : إن الله تعالى أمر جبريل (أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها .

٢) انظر تفسير البيضاوي ٢٩/٣٦.

٣) تفسير الشوكاني ٥/٢٧٣. تفسير البيضاوي ٥/٣٧٣.

٤) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧ .

٥) تفسير البيضاوي ٥/٣٧٣. تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧ : أي هكذا عذاب من خالف أمر الله .

يقول الطبري : يقول جل ثناؤه: كفعلنا بجنة أصحاب الجنة إذ أصبحت كالصريم بالذي أرسلنا عليها من البلاء والآفة المفسدة ، فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا في عاجل الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر، يعني عقوبة الآخرة بمن عصى ربه وكفر به أكبر يوم القيامة من عقوبة الدنيا وعذابها ، قال ذلك ابن عباس وقتادة [١]

﴿لو كانوا يعلمون﴾ يقول : لو كان هؤلاء يعلمون أن عقوبة الله لأهل الشرك به أكبر من عقوبته لهم في الدنيا لارتدعوا وتابوا وأنابوا ، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون [٢]

﴿كذلك العذاب﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة ، العذابُ في الدنيا.

﴿ولعذاب الآخرة أكبر﴾ أعظم منه لو كانوا يعلمون لاحترزوا عما يؤدي بهم إلى العذاب [٣]

كذلك العذاب : جملة من مبتدأ وخبر مقدم ؛ لإفادة القصر ، والألف واللام للعهد ، أي مثل الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر : أعظم وأشد ، لو كانوا يعلمون أنه أكبر لاحترزوا عما يؤدي بهم إليه [٤]

---

١) تفسير الطبري ٣٦/٢٩. تفسير الواحدي ١١٢٣/٢.
٢) تفسير الطبري ٣٦/٢٩.
٣) تفسير البيضاوي ٥/، ٣٧٣
٤) تفسير أبي السعود ١٧/٩ .

المبحث الحادي عشر: أحداث القصة:

كانت قصة أصحاب الجنة معروفة عند أهل مكة، والله تعالى ابتلى أهل مكة بالجوع والقحط بعد أن دعا عليهم النبي ﷺ، كما ابتلى به أصحاب الجنة.

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - إليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إنا بلوناهم﴾ أي اختبرناهم كما بلونا أصحاب الجنة وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه [1]

وكانت قصة أصحاب الجنة كما يلي:

كانت بأرض اليمن جنة، قيل: كانت على فرسخين من صنعاء، وكانت لرجل يؤدي حق الله منها، وكان مؤمنًا،

واتفق المفسرون أن أحداث القصة كانت قبل الإسلام، وذلك بعد عيسى بن مريم - عليهما السلام - أي كانت زمن الفترة التي كانت بين النبي محمدﷺ وبين عيسى عليه السلام، وهل كان صاحب الجنة من ثقيف أو من الحضارمة أو من الحبشة؟ في ذلك خلاف بين المفسرين، كما تقدم.

---

١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧ .

وكانت الجنة من النخل ، أو فيها من أنواع الثمار والزروع.

كان هذا الرجل يأخذ من جنته قدر قوته ، وكان يتصدق بالباقي.

وقيل: كان يترك للمساكين ما تعداه المنجل ، وما يسقط من رؤوس النخل، وما ينتثر عند الدِّرَاس ، فكان يجتمع من هذا شيء كثير.

قال ابن عباس: كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسخين ، غرسها رجل من أهل الصلاح ، وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تعداه المنجل، فلم يجذه من الكرم ، فإذا طرح على البساط ، فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضًا للمساكين، فإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين ، فإذا درسوا كان لهم كل شيء انتثر ، فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين ، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين، وقيل : كان أبوهم رجلا صالحًا ، وكان إذا بلغ ثماره أتاه المساكين ، فلم يمنعهم من دخولها ، وأن يأكلوا منها ، وأن يتزودوا.

فمات الرجل وصارت إلى أولاده ، فأرادوا منع الفقراء من حقهم الذي كان يعطيه أبوهم لهم ، فقالوا : المال قليل، والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل ما كان يفعل أبونا، بل

اتهم بعضهم أباهم بالحمق ، وبعضهم اتهمه بالخطأ ؛ لأنه يعطي هؤلاء المساكين ، وانقسموا على أنفسهم ، فكان منهم من أشار بمنع المساكين ، ومنهم من أيد المانعين، وكان منهم ذو عقل ورأي وعدل فمنعهم من ذلك العمل فلم يرتدعوا ، ومنهم من سكت ، وأخيرًا استقر رأي الجميع على الحرمان وبيتوا الأمر على ذلك ، ثم أقسموا بالله تعالى على أن يصرموا الجنة وقت الصباح الباكر حتى لا يجتمع عليهم المساكين ، كما أقسموا أن لا يستثنون ، وهل كان هذا الاستثناء هو أن لا يقولوا إن شاء الله ، أو هو أنهم أقسموا أن لا يستثنوا حق المساكين ؟ خلاف بين المفسرين.

ثم ناموا على هذه النية الخبيثة ، ولكن عين الله تعالى لا تنام.

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، وهل كان هذا الطائف نارًا أحرقتها أو أن جبريل اقتلعها ؟ خلاف.

قال القرطبي:

وكان الطائف الذي طاف عليها جبريل - عليه السلام- فاقتلعها ، فيقال إنه طاف بها حول البيت ، ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ، ولذلك سميت الطائف، وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعناب ظاهرًا غيرها.

المهم أنها أصبحت كالصريم ، كالليل الأسود من أثر الاحتراق ، أو كالصريم ، أي كالصبح بيضاء لا نبت فيها ، أو أصبحت أرضها كالرمل لا تنبت شيئًا ، كل ذلك يدل على أنها أصبحت لا تنفع في شيء.

فاستيقظ الأولاد وقت الصباح الباكر مصممين على تنفيذ ما اتفقوا عليه ، فتنادوا في ذلك الوقت : يقول بعضهم لبعض أخرجوا من الصباح الباكر ولا تتأخروا عن حرثكم وجنتكم إن كنتم ناوين قطع ثمارها .

ويبدو أن هؤلاء القوم من السذاجة بحيث إنهم لم يفكروا في عاقبة أمرهم ، ولم يحسبوا لنيتهم هذه أي حساب ، بل تمادوا في غيهم وباطلهم إلى آخر المدى، فانطلقوا وهم يتخافتون ، أي على حال من التكتم بحيث يسر بعضهم إلى بعض القول ، يرددون ما عزموا عليه من الليل : وهو أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وكان الأمل في تنفيذ ما عزموا عليه يملأ قلوبهم ، والشوق إلى رؤية الثمار وقد تجمعت عندهم يسيطر على مشاعرهم ، فلم يعودوا يفكرون في شيء من أمرهم غير هذا ، واعتقدوا أنهم قادرون على منع المساكين من الثمار ، وغدوا على حرد قادرين، أي وهم في مسيرهم المبكر كانوا يظنون أنهم قادرون على تنفيذ إرادتهم.

وساروا وهم عازمون على ذلك.

ووصلوا الجنة وشدهوا للمفاجأة ، وذهلوا ، ما هذا ؟ ثم قالوا : أين الجنة التي كانت بالأمس موقرة بالثمار والزروع ؟ !! لا شَك أن هذه غير جنتنا ، وأننا قد ضللنا الطريق ! ثم نظروا فوجدوا أنها هي هي جنتهم ، وأن الطريق هو هو.

وبعد أن اطمأنوا إلى أن نيتهم السيئة كانت السبب في كل ما حدث ، رجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : بل نحن محرومون ، حرمنا خيرها بسبب ما عزمنا عليه من الشر، وهنا قال الذي هو أوسطهم ، وكان من ذوي العقل والحجى، وكان قد نصحهم قبلا أن لا يقدموا على مثل هذا العمل السيئ ، قال لهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون، هنا تذكروا فعرفوا أن الله لا تخفى عليه خافية ، وأن الله تعالى ينتقم من الظالم فارتدعوا ، وقالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، وأخذ كل واحد منهم يلقي باللائمة على صاحبه: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ هذا يقول أنت الذي أشرت بالفكرة اللعينة ، وهذا يقول بل كنت أنت البادئ بها ، وهكذا يلوم بعضهم بعضًا ، ولكن النتيجة واحدة وهي أنهم قد حرموا جنتهم التي كان يستفيد منها أهلها وغيرهم ، والسبب هو هذه النية السيئة ، فلذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا :﴿يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾.

ثم رجعوا إلى الله تعالى طالبين منه العفو عما بدر

منهم فقالوا: ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيرًا منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ فاستجاب الله تعالى منهم هذه الرجعة وهذا الندم فأبدلهم خيرًا منها ، بحيث كان عنقود العنب من الكبر بحيث لا يحمل البغل إلا عنقودًا واحدًا ،

ثم هدد الله تعالى كل من يفعل هذا الفعل فقال: كذلك العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر، ولو كانوا يعلمون ذلك لما فعلوه.

وبمناسبة ذكر جنة الرجل الصالح، وكيف أن الله تعالى عاقب أولاده لما منعوا حق الفقراء، ثم لما بين الله تعالى أن هذا العقاب عقاب الدنيا وان ما عنده من العذاب يوم القيامة أشد وأكبر، ذكر الله تعالى جزاء المتقين فقال: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾.

وهكذا أسدل الستار على هذه القصة التي أراد الله تعالى أن يذكر بها الناس حتى لا يغفلوا ولا ينسوا الله تعالى ، وحتى لا يتركوا مراقبته جلّ جلاله.

الفصل الثالث : النية وما يتعلق بها من الأحكام :

وفيه تمهيد واثنا عشر مبحثا

التمهيد:

للنية المقام الأعلى في الحكم على الأعمال (١)

وقبل الخوض في الموضوع نبين تعريف النية باختصار فنقول:

النية لغة:

قال ابن فارس في المقاييس: النون والواو والحرف المعتل أصل صحيح يدل على معنيين: أحدهما : مقصدٌ لشيءٍ ، والثاني والآخر عَجَم شيء . فالأول : النوى ، قال أهل اللغة: النوى التحول من دار إلى دار ، هذا هو الأصل، ثم حمل عليه الباب كله فقالوا: نوى الأمر ينويه ، إذا قصد له، ومما يصحح هذه التآويل قولهم: نواه الله ، كأنه قصده بالحفظ والحياطة قال الشاعر:

يا عمرو أحسن نواك الله بالرشَدِ

واقرأ سلاما على الذلفاء بالثمدِ

أي قصدك بالرشَدِ.

والنية: القصد الذي تنويه، ونَوِيُّكَ: صاحبك

---

١) انظر الأشباه والنظائر للسيوطي ص٨. ذكر الكثير مما يتعلق بالنية في أول كتابه ، وانظر كتاب النية وأثرها في الأحكام الشرعية د/صالح بن غانم السدلان تكلم عن النية في مجلدين كبيرين . وتفسير النسفي ١/١٤٢-١٤٣ . جامع العلوم والحكم حديث النية .

الذي نيته نيتك . اهـ.[1]

قال الفيومي : نويته أنويه : قصدته ، والاسم النِيَّة والتخفيف لغة حكاها الأزهري ثم خصت النية في غالب الاستعمال : بعزم القلب على أمر من الأمور اهـ.[2]

والنية اصطلاحًا:

لا تخرج النية اصطلاحا عن هذا المعنى ، وإليك بعض تعريفات العلماء:

قال البيضاوي : النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب نفع أو دفع ضر ، حالا أو مآلا[3]

وقال سعدي جيب في القاموس الفقهي : النية في الشرع: العزم على فعل الشيء تقربا إلى الله تعالى.

وعرفها بتعريف آخر فقال: قصد الشيء مقترنا بفعله، فإن تراخى عنه سُمي عزمًا اهـ.[4]

وقد أورد ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم ، والسيوطي في الأشباه والنظائر الكثير من

١) المقاييس في اللغة ص١٠٠٢.

٢) المصباح المنير ٢/٣٢٠ (نوى) .

٣) فتح الباري لابن حجر ١/١٣ . نيل الأوطار ١/١٦٣ . زاد الشوكاني : والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله وامتثال حكمه . الأشباه والنظائر للسيوطي ١/٣٠ . المدخل لابن بدران١/٤٩١ . تحفة الأحوذي ٥/٢٣٢ .

٤) ص.٣٦٤ .

الأحاديث التي تبين قيمة النية ، ولذلك صدر كثير من المحدثين والفقهاء كتبهم بحديث النية ، حتى جعل الإمام البخاري حديث النية كالمقدمة لكتابه [1]

وهكذا فعل النووي في أربعينه، وتبعه ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم [2] فقال:

الحديث الأول عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) رواه البخاري ومسلم [3]

قال ابن رجب: هذا الحديث تفرد بروايته يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة ابن أبي وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. واتفق العلماء على صحته وتلقيه بالقبول، وبه صدر البخاري كتابه الصحيح، وأقامه مقام الخطبة له، إشارة منه إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، لا ثمرة

١) ١-٢ كتاب بدء الوحي باب كيف بدأ الوحي

٢) ١٢/١ .

٣) صحيح البخاري ٣/١.صحيح مسلم ١٥١٥/٣ . صحيح ابن خزيمة ٧٣/١ . صحيح ابن حبان ٥١/٢ . سنن الترمذي ١٧٩/٤ . سنن أبي داود ٢٦٢/٢ .

له في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي : لو صنفت كتابا في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في ﴿الأعمال بالنيات﴾ في كل باب.

وعنه أنه قال : من أراد أن يصنف كتابًا فليبدأ بحديث ﴿الأعمال بالنيات﴾ [١]

المبحث الأول : أقوال العلماء عن حديث النية [٢]

بعد هذا التمهيد نبين أقوال العلماء عن قيمة حديث النية.

قال السيوطي في الأشباه والنظائر : اعلم أنه قد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر حديث النية.

قال أبو عبيدة : ليس في أخبار النبي - صلى الله عليه وسلم - شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة منه.

واتفق الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل ، وابن مهدي، وابن المديني ، وأبو داود ، والدارقطني وغيرهم على أنه ثلث العلم ، ومنهم من قال ربعه.

ووجه البيهقي كونه ثلث العلم : بأن كسب العبد يقع

---

١) جامع العلوم والحكم ١٣/١ .

٢) انظر لأقوالهم : جامع العلوم والحكم ١٣/١-١٦ والأشباه والنظائر للسيوطي ص٩ .

بقلبه ولسانه وجوارحه ، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها لأنها قد تكون عبادة مستقلة ، وغيرها يحتاج إليها ، ومن ثم ورد ﴿نية المرء خير من عمله﴾ [1] اهـ.

وقال ابن رجب الحنبلي : وهذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها ، فروى عن الشافعي أنه قال : هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه [2]

قال د/صالح السدلان في كتابه النية : وما ذكره الشافعي صحيح ، فإنه لا يخفى على أحد منزلة النية ودخولها في سائر الأعمال القولية والفعلية ، وأعمال القلوب والجوارح ، بل إنك إذا نظرت في منزلة النية ودخولها في كل عمل ، وجدت أنها نصف الدين لأن العمل مبني على قاعدتين : الإخلاص والمتابعة ، فالإخلاص تحققه النية ، والعمل التزام النص الوارد من كتاب أو سنة[3]

---

١) تأويل مختلف الحديث ١/ ١٤٨ شعب الإيمان ٥ /٣٤٣ ذكر الحديث ثم قال تعليقا على الحديث : سمعت أحمد بن يحيى ثعلب يقول سمعت ابن الأعرابي يقول " نية المؤمن خير من عمله " لأن النية لا يدخلها الفساد ، والعمل يدخله الفساد ، وإنما أراد بالفساد بالرياء ...وقد قيل النية دون العمل قد تكون طاعة ، قال النبي – صلى الله عليه وسلم – " مَن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة " قالوا : والعمل دون النية لا يكون طاعة.

٢) (قلت) بين السيوطي في الأشباه والنظائر كيف تدخل النية في سبعين بابا ، وذكرها وقال : إنها تدخل في أكثر من ذلك .

٣) النية وأثرها في الأحكام الشرعية ٥٤/١ .

وعن الإمام أحمد – رضي الله عنه – قال : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث:

حديث عمر ﴿إنما الأعمال بالنيات﴾

وحديث عائشة (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) [١]

وحديث النعمان بن بشير (الحلال بين والحرام بين)[٢]

وقال الحاكم : حدثونا عن عبد الله بن أحمد ، عن أبيه أنه ذكر قوله – عليه الصلاة والسلام – (الأعمال بالنيات).

وقوله (إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا)[٣]

---

١) صحيح البخاري ٩٥٩/٢ . صحيح مسلم ١٣٤٣/٣صحيح ابن حبان ٢٠٧/١ . ١١٩/١٠ .

٢) صحيح البخاري ٢٨/١ . صحيح مسلم ١٢٢١/٣صحيح ابن حبان ٤٩٣/٢ . سنن الترمذي ٥١١/٣ . سنن الدارمي ٣١٩/٣ .

٣) صحيح البخاري ١١٧٤/٣ . صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٦عن عبد الله قال : حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو الصادق المصدوق (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها ، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها (صحيح ابن حبان ٤٧/١٤ . سنن أبي داود ٢٢٨/٤ . سنن ابن ماجه ٢٩/١ .

وقـوله (مـن أحـدث في ديننـا مـا ليس منه فـهـو رد) فقال: ينبغي أن يبتدأ بهذه الأحاديث في كل تصنيف، فإنها أصول الأحاديث.

وعن إسـحاق بن راهـويه قـال : أربعـة أحـاديث هـي من أصول الدين :

حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات)

وحديث (الحلال بين والحرام بين)

وحديث (إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا)

وحديث (من صنع في أمرنا شيئا ما ليس منه فهو رد).

وروى عثمان بن سعيد عن أبي عبيد قال : جمع النبي - صلى الله عليـه وسلم - جـمـيع أمـر الآخـرة في كلمـة واحـدة[1] (من أحـدث فـي أمـرنا مـا ليس منه فـهـو رد) وجـمـع أمـر الدنيـا كله في كلمـة واحـدة (إنما الأعـمـال بالنيات) وهما يدخلان في كل باب .

وعن أبي داود قـال: نظـرت فـي الحـديث المسند ، فـإذا هو أربعة آلاف حديث ، ثم نظرت ، فإذا مدار أربعة آلاف الحديث على أربعة أحاديث:

---

١) تطلق الكلمة ويراد بها أحيانا الكلام كما تقول : يلقي فلان عليكم كلمة ، وهي خطبة كاملة ، قال ابن مالك في الألفية : واحده كلمة والقول عم ■ وكلمة بها كلام قد يؤم.

يعني قد يقصد بالكلمة كلام .

حديث النعمان بن بشير (الحلال بين والحرام بين).

وحديث عمر (إنما الأعمال بالنيات).

وحديث أبي هريرة (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين) الحديث [1].

وحديث (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) [2]

قال : فكل حديث من هذه الأربعة ربع العلم.

وعن أبي داود - رضي الله عنه - [3] أيضًا قال: كتبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها ما تضمنه هذا الكتاب - يعني كتاب السنن - جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث:

أحدها : قوله - صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات).

---

١) صحيح مسلم ٧٠٣/٢ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (أيها الناس ! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ! يا رب ! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ (. المستدرك للحاكم ٩١/٣ السنن الكبرى للبيهقي ٣٤٩/٣. مصنف عبد الرزاق ١٩/٥ .

٢) الموطأ للإمام مالك ٩٠٣/٢ . صحيح ابن حبان ٤٦٦/١ . سنن الترمذي ٥٥٨,/٤ سنن ابن ماجه ١٣١٥/٢ . المعجم الأوسط ١١٢/١ . مسند أحمد ٥١١/١. التمهيد لابن عبد البر ١٩٥/٩ .

٣) انظر لقول أبي داود : سير أعلام النبلاء ٢١٠/١٣ تهذيب الكمال ٣٦٤/١١ . تأريخ بغداد ٥٧/٩ . صفوة الصفوة ٦٩/٤ .

والثاني : قوله صلى الله عليه وسلم (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) [1]

والثالث : قوله - صلى الله عليه وسلم (لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه)[2].

والرابع : قوله - صلى الله عليه وسلم (الحلال بين والحرام بين).

وفي رواية أخرى عنه أنه قال : الفقه يدور على خمسة أحاديث:

(الحلال بين والحرام بين)

وقوله (لا ضرر ولا ضرار) [3]

وقوله (إنما الأعمال بالنيات)

وقوله (الدين النصيحة) [4]

وقوله (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فائتوا منه ما استطعتم) [5]

---

١) الموطأ ٩٠٣/٢ . صحيح ابن حبان ٤٦٦/١ . سنن الترمذي ٥٥٨/٤ . سنن ابن ماجه ١٣١٥/٢ . المعجم الأوسط ١١٥/١ . مسند الإمام أحمد ٢٠١/١.

٢) وورد بمعناه : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " صحيح البخاري ١٤/١ سنن الترمذي ٦٦٧/٤ . سنن الدارمي ٣٩٧/٢ . مسند أحمد ١٧٦٦/٣ .

٣) الموطأ٧٤٥/٢ . مسند الشافعي ٢٢٤/١ . مسند أحمد ٣١٣/١ . المستدرك للحاكم ٦٦/٢ سنن البيهقي الكبرى ١٥٨/٦ : مرسل، مجمع الزوائد ٣٠٤:٤ . سنن ابن ماجه ٧٨٤/٣ .

٤) صحيح البخاري ١٩/١ . صحيح مسلم ٧٤/١ . صحيح ابن حبان ٤٣٥/١٠ . سنن الترمذي ٣٢٤/٤ . مسند الإمام الشافعي ٢٣٣ . سنن أبي داود ٢٨٦/٤ .

٥) صحيح ابن حبان ١٩٨/١. مسند الحميدي ٤٧٧/٢ .

وفي رواية عنه قال : أصول السنن في كل فن أربعة أحاديث:
حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات)

وحديث (الحلال بين والحرام بين)

وحديث (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)

وحديث (ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)[1]

وللحافظ أبي الحسن طاهر بن مفوز المعافري الأندلسي:

عمدة الدين عندنا كلمات ■ أربع من كلام خير البرية

اتق الشبهات وازهد ودع ما ■ ليس يعنيك واعملَنّ بنية[2]

قال ابن رجب الحنبلي : فقوله - صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات) وفي رواية (الأعمال بالنيات) وكلاهما يقتضي الحصر على الصحيح[3]

وبهذا نجد أن جميع هؤلاء العلماء جعلوا حديث النية من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام ، ولم يختلف أحد في ذلك وإن اختلفوا في غيره ، وهذا يعطي لهذا الحديث القيمة العظمى التي يستحقها ، كما يعطي للنية القيمة الكبرى التي هي لها في الأحكام الشرعية . والله أعلم.

---

١) المستدرك للحاكم ٣٤٨/٤ قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . سنن ابن ماجه ١٣٧٣/٢ . لكن ضعفه في مصباح الزجاجة ٢١٠/٤ .المعجم الكبير ١٩٣/٦ . التمهيد لابن عبد البر ٢٠١/٩ شرح النووي على صحيح مسلم ٢٧/١١ .

٢) انظر للبيتين : جامع العلوم والحكم ١٦/١ . فتح الباري ١٢٩/١ . شرح السيوطي لسنن النسائي ٢٤٢/٧ . نيل الأوطار ٣٢٢/٥ .

٣) جامع العلوم والحكم ١٦/١ .

المبحث الثاني : ما هو التقدير في(إنما الأعمال بالنيات)؟

بما أن حديث النية يحتمل تقدير الصحة والكمال فلا بد من تحديد ذلك ، ومن هنا اهتم الفقهاء في التقدير لهذا الحديث.

قال البيضاوي : ولابد من محذوف يتعلق به الجار والمجرور : فقيل : تعقد ، وتكمل ، وقيل تصح ، وقيل تحصل ، وقيل تستقر.

قال : وهذه المعاني متقاربة ، وقيل الكون المطلق ، أي كون النية مطلقة [١]

وقد استوعب ذلك أو قاربه ابن رجب الحنبلي فقال : وقد اختلفوا في تقدير قوله: (الأعمال بالنيات).

فكثير من المتأخرين يزعم أن تقديره : الأعمال صحيحة ، أو معتبرة ومقبولة بالنيات ، وعلى هذا فالأعمال إنما أريد بها الأعمال الشرعية المفتقرة إلى النية، فأما مالا يفتقر إلى نية كالعادات من الأكل والشرب واللبس وغيرها ، أو مثل رد الأمانات والمضمونات، كالودائع والغصوب، فلا يحتاج شيء من ذلك إلى نية [٢] ، فيخص هذا كله من عموم الأعمال المذكورة ههنا .

١) نيل الأوطار للشوكاني ١٦٣/١ .

٢) لأنها تصح من المؤمن ومن الكافر .

وقال آخرون : بل الأعمال ههنا على عمومها ، لا يختص منها شيء ، وحكاه بعضهم عن الجمهور ، كأنه يريد به جمهور المتقدمين.

وقد وقع ذلك في كلام ابن جرير الطبري ، وأبي طالب المكي وغيرهما من المتقدمين ، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد ، قال في رواية حنبل : أحب لكل من عمل من صلاة ، أو صيام ، أو صدقة ، أو نوع من أنواع البر ، أن تكون النية متقدمة في ذلك قبل الفعل ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم (الأعمال بالنيات) فهذا يأتي على كل أمر من الأمور.

وقال الفضل بن زياد : سألت أبا عبد الله - يعني أحمد - عن النية في العمل ، قلت : كيف النية ؟ قال : يعالج نفسه إذا أراد عملا لا يريد به الناس.

وقال أحمد بن داود الحربي : حدث يزيد بن هارون بحديث عمر (الأعمال بالنيات) وأحمد جالس ، فقال أحمد ليزيد : يا أبا خالد ، هذا الخناق .

وعلى هذا القول ، فقيل تقدير الكلام : الأعمال واقعة، أو حاصلة بالنيات ، فيكون إخبارًا عن الأعمال الاختيارية أنها لا تقع إلا عن قصد من العامل ، هو سبب عملها ووجودها ، ويكون قوله بعد ذلك ﴿ وإنما لكل امريء ما نوى ﴾ إخبارًا عن حكم الشرع ، وهو أن حظ العامل من

عمله نيته ، فإن كانت صالحة فعمله صالح ، فله أجره ، وإن كانت فاسدة ، فعمله فاسد فعليه وزره [1] .

ويحتمل أن يكون التقدير في قوله (الأعمال بالنيات) صالحة أو فاسدة ، أو مقبولة ، أو مردودة ، أو مثاب عليها، أو غير مثاب عليها بالنيات ، فيكون خبرًا عن الحكم الشرعي ، وهو أن صلاحها وفسادها بحسب صلاح النية وفسادها ، كقوله - صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالخواتيم) [2] أي أن صلاحها وفسادها وقبولها وعدمها بحسب الخاتمة [3]

وقوله بعد ذلك (وإنما لكل امريء ما نوى) إخبارٌ أنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به ، فإن نوى خيرًا حصل له خيرٌ ، وإن نوى به شرّاً حصل له شر.

وليس هذا تكريرًا محضًا للجملة الأولى ، فإن الجملة الأولى دلت على أن صلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده ، والجملة الثانية دلت على أن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة ، وقد تكون نيته مباحة فيكون العمل مباحًا ، فلا يحصل له ثواب ولا عقاب ، فالعمل في نفسه

---

١) (قلت) ومن تدبر الكلام الماضي كله يجد أنه يتعلق بالعبادات فقط ، سواء كان كلام أحمد أم كان كلام غيره .

٢) صحيح ابن حبان ٥١/٢ و٥٢/٢. موارد الضمآن ٤٥٠/١ . المعجم الكبير للطبراني ١٤٣/٦ . مسند الشهاب ١٩٣/٢ . فيض القدير ١٧٨/٢ .

٣) انظر جامع العلوم والحكم ١٨,/١

صلاحه وفساده وإباحته بحسب النية الحاملة عليه ، المقتضية لوجوده ، وثواب العامل وعقابه وسلامته بحسب النية التي صار بها العمل صالحًا ، أو فاسدًا [1]

المبحث الثالث : معاني النية في كلام العلماء [2]

والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين :

أحدهما : تمييز العبادات بعضها عن بعض[3] كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلا ، وتمييز رمضان من صيام غيره.

أو تمييز العبادات من العادات ، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظيف ونحو ذلك.

وهذه النية هي التي توجد كثيرًا في كلام الفقهاء في كتبهم.

---

١) جامع العلوم والحكم ١/١٩.

٢) تكلم عن هذا الأمر عبد الرحمن بن رجب في جامع العلوم والحكم ١/١٩ وعنه النقل ، كما تكلم عنه السيوطي في الأشباه والنظائر ص١٢. وعنه النقل في الهامش ، وابن عابدين في رد المحتار حاشيته على الدر المختار ١/١٠٨ . وغيرهم .

٣) الأشباه والنظائر ص١٢ : المبحث الثالث : فيما شرعت النية لأجله ، المقصود الأهم منها : تمييز العبادات من العادات ، وتمييز رتب العبادات بعضها من بعض : كالوضوء والغسل يتردد بين التنظف والتبرد والعبادة ، والإمساك عن المفطرات قد يكون للحمية والتداوي أو لعدم الحاجة إليه ، والجلوس في المسجد قد يكون للاستراحة ، ودفع المال للغير قد يكون هبة ، أو وصلة لغرض دنيوي ، وقد يكون قربة كالزكاة والصدقة والكفارة، والذبح قد يكون بقصد الأكل ، وقد يكون للتقرب بإراقة الدماء ، فشرعت النية لتمييز القرب من غيرها ،

وقال عن تمييز العبادات بعضها عن بعض : وكلٌّ من الوضوء والغسل والصلاة والصوم ونحوها قد يكون فرضًا ونذرًا ونفلا ، والتيمم قد يكون عن الحدث أو الجنابة ، وصورته واحدة فشرعت لتمييز رتب العبادات بعضها من بعض اهـ.

والمعنى الثاني : بمعنى تمييز المقصود بالعمل ومعناه ، وهل هو لله وحده لا شريك له ، أم لله وغيره ؟ وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه ، وهي التي توجد كثيرًا في كلام السلف المتقدمين.

وقد صنف أبو بكر بن أبي الدنيا مصنفًا سماه (كتاب الإخلاص والنية) وإنما أراد هذه النية ، وهي النية التي يتكرر ذكرها في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - تارة بلفظ النية ، وتارة بلفظ الإرادة ، وتارة بلفظ مقارب لذلك.

وقد جاء ذكرها كثيرًا في كتاب الله - عز وجل - بغير لفظ النية أيضًا من الألفاظ المقاربة لها ، وإنما فرَّق من فرَّق بين النية ، وبين الإرادة والقصد ونحوهما ؛ لظنهم اختصاص النية بالمعنى الأول الذي يذكره الفقهاء ، فمنهم من قال: النية تختص بفعل الناوي ، والإرادة لا تختص بذلك، كما يريد الإنسان من الله أن يغفر له ، ولا ينوي ذلك.

المبحث الرابع : النية في القرآن الكريم:

وقد ذكرنا أن النية في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - وسلف الأمة إنما يراد بها هذا المعنى الثاني غالبًا، فهي حينئذ بمعنى الإرادة ، ولذلك يعبر عنها بلفظ الإرادة في القرآن كثيرًا ، كما في قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ آل عمران -١٥٢ وقوله - عز وجل: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ ٦٧ - الأنفال.

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ ١٥-هود.

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ١٨- الإسراء

وقد يعبر عنها في القرآن بلفظ الابتغاء ، كما في قوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ ٢٠ - الليل.

وقوله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم﴾ ٢٦٥- البقرة. . وقوله تعالى: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ ٢٦٥- البقرة . وقوله: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيما﴾ ١١٤- النساء.

فنفى الخير عن كثير مما يتناجى الناس به ، إلا في

الأمر بالمعروف ، وخص من أفراده الصدقة والإصلاح بين الناس لعموم نفعهما ، فدل ذلك على أن التناجي بذلك خير.

وأما الثواب عليه من الله فخصه بمن فعله ابتغاء مرضاة الله ، وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصدقة والإصلاح بين الناس وغيرهما خيرًا ، وإن لم يبتغ به وجه الله لما يترتب على ذلك من النفع المتعدي ، فيحصل به للناس إحسان وخير.

وأما بالنسبة إلى الأمر ، فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته كان خيرا له ، وأثيب عليه ، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيرًا له ولا ثوابَ له عليه ، وهذا بخلاف من صلى وصام ، وذكر الله يقصد بذلك عرض الدنيا ، فإنه لا خير له فيه بالكلية ؛ لأنه لا نفع في ذلك لصاحبه ؛ لما يترتب عليه من الإثم فيه ، ولا لغيره ؛ لأنه لا يتعدى نفعه إلى أحد، اللهم إلا أن يحصل لأحد اقتداء به في ذلك.

المبحث الخامس : النية في السنة

ذكـر السيوطي في الأشباه [1] أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليـه وسلم - تحـدث فيـهـا - عليـه الصـلاة والسـلام - عن قـيـمـة النيـة بالنسبـة للعمل ، كمـا ذكـر ابن رجب الحنبلي مثل ذلك [2]

ومما قـال: وأمـا مـا ورد في السـنة وكـلام السلف من تسمية الإرادة وما شاكلها بالنية فكثير جداً :

ففي حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليـه وسلم - أنه قـال: (من غـزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالا فله ما نوى) [3]

وخرج الإمام أحمد من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبـي - صلى الله عليه وسلم - قال: (إن أكثـر شـهداء أمتي أصحاب الفرش ، ورب قتيل بين صفين الله أعلم بنيته) [4]

ومن حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - عن

---

١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص٨-٩ .

٢) جامع العلوم والحكم ٢٢/١ وما بعدها .

٣) الأحاديث المختارة ٣٥٨/٨ حسنه . سنن البيهقي الكبرى ١٧/٢ . سنن النسائي (المجتبى) ٢٤/٦ . الترغيب والترهيب للمنذري ١٩٥/٢. الفردوس بمأثور الخطاب ٥٥٣/٣ .

٤) مجمع الزوائد للهيثمي ٣٠٢/٥ : والظاهر أنه مرسل ورجاله ثقات . مسند الإمام أحمد ٣٩٧/١ . فتح الباري لابن حجر١٩٤/١٠ . نوادر الأصول في أحاديث الرسول ٢٣١/٤ .

النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (يحشر الناس على نياتهم)[1]

ومن حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (إنما يبعث الناس على نياتهم)[2]

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة – رضي الله عنها – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (يعوذ عائذ بالبيت ، فيبعث إليه بعث ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم) فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارهًا؟ قال: (يخسف به معهم ، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته)[3]

وفيه أيضا عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – معنى هذا الحديث ، وقال فيه: (يهلكون مهلكًا واحدًا ، ويصدرون مصادر شتى ويبعثهم الله على نياتهم)

وخرج الإمام أحمد من حديث زيد بن ثابت – رضي

١) مسند الإمام أحمد ٣٩٢/٢ . سنن ابن ماجه ١٤١٤/٢. فيض القدير ٧/٣: إسناده حسن .

٢) المراجع نفسها

٣) صحيح مسلم ٢٢٠٨/٤ . صحيح ابن حبان ١٥ /١٥٧ . المستدرك للحاكم ٤٧٥/٤ المعجم الكبير للطبراني ٣٢١/٢٣.عون المعبود ٢٥٦/١١ . تحفة الأحوذي ٣٢٧/٦ . المحلى لابن حزم ٤٠٧/١١ .

الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (من كانت همه الدنيا ، فرق الله شمله) وفي لفظ (أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة) [١] فيه ضعف.

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أثبت عليها حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك) [٢]

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: (لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا ينفع قول ولا عمل إلا بنية ، ولا ينفع قول ولا عمل ولا نية إلا بما وافق السنة) [٣]

وذكر السيوطي أحاديث كثيرة في الأشباه والنظائر من ذلك:

عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله – صلى الله

---

١) مسند الإمام أحمد ١٨٣/٥ . سنن أبي داود ١٢٧/٢ . سنن الترمذي ٦٤٢/٤ . صحيح ابن حبان ٤٥٥/٢ . موارد الضمآن ٤٧/١ ضعفه . المعجم الكبير للطبراني ١٥٤/٥ التمهيد لابن عبد البر ٢٧٦/٢١ . سنن الدارمي ٨٦/١ . جامع العلوم والحكم ٢٦/١ .

٢) صحيح البخاري ٣٠/١ صحيح مسلم ١٢٥١/٣ . صحيح ابن حبان ٣٨٣/١٣ موطأ الإمام مالك ٧٦٣/٢ .

٣) الجرح والتعديل ٥١٤/٢ . تهذيب الكمال ٢١٧/٢٩ . جامع العلوم والحكم ٢٤/١ قال : بإسناد ضعيف .

عليه وسلم - يقول: (إن الله - عز وجل - يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، ومنبله ، وارموا ، واركبوا ، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا ، ليس من اللهو [(١)] إلا ثلاث : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو قال كفرها) [(٢)]

وعن عمرو بن دينار أن بني صهيب قالوا لصهيب : يا أبانا إن أبناء أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يحدثون عن آبائهم ؟ فقال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) [(٣)] وسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (أيما رجل تزوج امرأة فنوى أن لا يعطيها من صداقها شيئا ، مات يوم يموت وهو زان ، وأيما رجل اشترى من رجل بيعا فنوى أن لا يعطيه من ثمنه شيئا ، مات يوم يموت وهو خائن والخائن في النار) [(٤)]

١) أي لا يباح شيء من اللهو إلا ثلاث .

٢) المستدرك للحاكم ١٠٢/٢ قال : وله شاهد على شرط مسلم . سنن أبي داود ١٣/٣ .سنن النسائي (المجتبى) ٢٢٢/٦ . سنن البيهقي الكبرى ١٣/١٠ . مسند الإمام أحمد ١٤٨/٤ . فتح الباري لابن حجر ٥٤٥/١ . المعجم الكبير للطبراني ٣٤٠/١٧ .

٣) صحيح ابن خزيمة ٥٢/١ . صحيح مسلم ١٠/١ صحيح ابن حبان ٢١٤/١ .

٤) المعجم الكبير للطبراني ٣٥/٨. وعن ميمون الكردي عن أبيه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان ، وأيما رجل استدان دينا لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقي الله وهو سارق رواه الطبراني في الأوسط والصغير ورجاله ثقات فيض القدير ١٤٠/٣.

وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - مرفوعًا (من تداين بدين ، وفي نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه ، وأرضى غريمه بما شاء ، ومن تداين بدين ، وليس في نفسه وفاؤه ، ثم مات اقتص الله -عز وجل - لغريمه يوم القيامة) [1]

وفي رواية : (من ادان دينا وهو ينوي أن يؤديه ومات ، أداه الله عنه يوم القيامة ومن استدان دينا وهو لا ينوي أن يؤديه ، فمات قال الله - عز وجل - له يوم القيامة (ظننت أني لا آخذ لعبدي بحقه ، فيؤخذ من حسناته فيجعل في حسنات الآخر ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات الآخر فيجعل عليه)

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله [2]

---

١) المستدرك للحاكم ٢٨/٢ المعجم الكبير٣٧١/٢ نقل أحاديث صحيحة في الموضوع نفسه .

٢) صحيح البخاري ٥١٨/٢ و٨٤١/٢. سنن البيهقي الكبرى ٣٥٤/٥ . سنن ابن ماجه ٨٠٦/٢ . مسند الإمام أحمد ٢/٣٦١

المبحث السادس : أقوال العلماء في النية [1] :

لما كانت النية أساس العمل فلابد من أن يهتم بها العلماء اهتماما كبيرًا ، ولذلك جاءت أقوال العلماء محذرة من سوء النية ومن الفاسد من الطوية ، وإليك بعضا من أقوالهم:

قال ابن المبارك سمعت جعفر بن حيان يقول : ملاك هذه الأعمال النيات ، فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله [2]

وكتب معاوية - رضي الله عنه - إلى عائشة - رضي الله عنها - أن اكتبي إلي بكتاب توصيني فيه ولا تكثري علي ، فكتبت : من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد: فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (من التمس رضى الله بسخط الناس ، كفاه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله - عز وجل - وكله الله - عز وجل - إلى الناس) ، والسلام عليك [3]

وعن حميد بن نعيم أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - رضوان الله عليهما - دُعِيا إلى طعام فأجابا ، فلما خرجا قال عمر لعثمان : لقد شهدت طعامًا وددت أني لم

١) ستأتي آثار كثيرة أكثرها بل كلها من جامع العلوم والحكم

٢) الزهد لابن المبارك ٦٣/١.

٣) صحيح ابن حبان ٥١٠/١ . الزهد لابن المبارك ٦٦/١ .

أشهده ، قال : وما ذاك ؟ قال : خشيت أن يكون جعل مباهاة [(١)]

وعن حجاج بن شداد أنه سمع عبيد الله بن أبي جعفر، أو قال عبد الله - وكان أحد الحكماء - يقول في بعض قوله : إذا كان المرء يحدث في المجلس فأعجبه الحديث فليسكت ، وإذا كان ساكتا فأعجبه السكوت فليحدث [(٢)]

وقال زيد بن الحباب : سمعت سفيان - يعني الثوري- يقول : لو علمت أن أحدًا يطلبه بنية - يعني الحديث - لاتبعته حتى أحدثه في بيته [(٣)]

وعن بشر بن الحارث قال: أنبأنا حماد بن زيد قال: استغفر الله ، إن لذكر الإسناد في القلب خيلاء [(٤)]

ونقل ابن رجب عن بعض العارفين بحقيقة النية أقوالا لها قيمتها في النية أنقلها للفائدة :

عن يحيى بن أبي كثير قال : تعلموا النية ، فإنها أبلغ من العمل.

وعن زيد الشامي قال : إني لأحب أن تكون لي نية في

---

١) الزهد لابن المبارك ١/٦٦-٦٧ .

٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ١ /٣٣٨. الزهد لابن المبارك ١/٦٧.

٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ٣٣٨/١

٤) المرجع نفسه.

كل شيء حتى في الطعام والشراب . وعنه أنه قال : انوِ في كل شيء تريد الخير حتى خروجك إلى الكناسة [1]

وعن داود الطائي قال : رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية ، وكفاك بها خيرًا ، وإن لم تنصب [2]

قال داود : والبَرُّ همة التقى ، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يومًا نيته إلى أصله [3]

وعن سفيان الثوري قال : ما عالجت شيئًا أشد علي من نيتي؛ لأنها تنقلب علي [4]

وعن يوسف بن أسباط قال : تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد [5]

وقيل لنافع بن جبير : ألا تشهد الجنازة ؟ قال : كما أنت حتى أنوي ، قال : ففكر هنيهة ثم قال : امض .

وعن مطرف بن عبد الله قال: صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية [6]

وعن بعض السلف قال : من سره أن يكمل له عمله ،

---

١) ستأتي آثار كثيرة أكثرها بل كلها من جامع العلوم والحكم ٢٤/١.

٢) أي النية هي في ذاتها خير وهي بدون تعب .

٣) جامع العلوم والحكم ٢٤/١.

٤) فتح الباري لابن حجر ٢٩٣/٤ . حلية الأولياء للأصفهاني ١١٦/٣ . سير أعلام النبلاء للذهبي ٦٣/٧ . نيل الأوطار للشوكاني ٣٢٤/٥ .

٥) جامع العلوم والحكم ١٣/١ .

٦) حلية الأولياء للأصفهاني ١٩٩/٢ . جامع العلوم والحكم ١٣/١ .

فليحسن نيته فإن الله - عز وجل - يأجر العبد إذا حسن نيته حتى باللقمة [١]

وعن ابن المبارك قال : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية.

(قلت) فجعل ابن المبارك للنية الفضل الكبير في تعظيم العمل وتحقيره ، وتكبيره وتصغيره ، فهو عمل واحد، وإنما يكبر ويصغر بالنية.

وقال ابن عجلان : لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله ، والنية الحسنة ، والإصابة.

وقال الفضيل بن عياض : إنما يريد الله - عز وجل - منك نيتك وإرادتك.

وعن يوسف بن أسباط قال : إيثار الله - عز وجل - أفضل من القتل في سبيل الله [٢]

خرج ذلك كله ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية [٣]

وروى فيه بإسناد منقطع عن عمر قال : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله - عز وجل - والورع عما حرم

١) الزهد لابن المبارك ٥٤٢/١ .

٢) جامع العلوم والحكم ٢٥/١ .

٣) لابن أبي الدنيا كتب كثيرة ، وقد طبع كتاب من خمسة مجلدات باسم موسوعة كتب ابن أبي الدنيا ، وليس فيها كتاب الإخلاص والنية . لذلك فقد نقلتها من كتاب جامع العلوم والحكم.

الله – عز وجل – وصدق النية فيما عند الله – عز وجل.

وقال الفضيل: في قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ ٢ – الملك ، قال : أخلصه وأصوبه.

وقال : إن العمل إذا كان خالصًا ، ولم يكن صوابًا ، لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا ، لم يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا.

قال : والخالص إذا كان لله – عز وجل – والصواب إذا كان على السنة.

وقد دل على هذا الذي قاله الفضيل قوله – عز وجل: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحًا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾ ١١٠ – الكهف [١]

وقال بعض العارفين : إنما تفاضلوا بالإرادات ، ولم يتفاضلوا بالصوم والصلاة [٢]

---

١) جامع العلوم والحكم ١/٢٦-٢٧.

٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٧.

المبحث السابع : بيان معنى (فمن كانت هجرته إلى الله) [١] .

قوله ﴿فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله﴾

الهجرة : الترك، والهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره.

وفي الشرع : ترك ما نهى الله عنه.

وقد وقعت في الإسلام على وجوه:

١- الهجرة إلى الحبشة

٢- والهجرة إلى المدينة

٣- وهجرة القبائل

٤- وهجرة من أسلم من أهل مكة

٥- وهجرة من كان مقيمًا بدار الكفر

٦- والهجرة إلى الشام في آخر الزمان عند ظهور الفتن

٧- وأخرج أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: (سيكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها) [٢]

---

١) أنظر فتح الباري ١٤/١ . جامع العلوم والحكم ٢٧/١ . نيل الأوطار ١٦٣/١ .

٢) سنن أبي داود ٣ / ٤ . نيل الأوطار للشوكاني ١٦٤/١ . مسند أحمد ١٩٨/٢ . قال عبد الله : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (انها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها تلفظهم أرضوهم تقذرهم نفس الله تحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا وتأكل من تخلف) وفي عون المعبود ٧/ ٣٣٩

قال : قال ابن القيم في كتاب الهدى النبوي : ومنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من إقامة المسلم بين المشركين إذا قدر على الهجرة من بينهم وقال: (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين) قيل: يارسول الله ولمَ ؟ قال: (لا تراءى ناراهما) وقال: (من جامع مع المشرك وسكن معه فهو مثله) وقال: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) وقال: (ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها يلفظهم أرضوهم تقذرهم نفس الله ، ويحشرهم الله مع القردة والخنازير) انتهى .

وقال ابن رجب الحنبلي ، وابن حجر في فتح الباري وغيرهما :

قوله - صلى الله عليه وسلم - (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) لما ذكر - صلى الله عليه وسلم - أن الأعمال بحسب النيات ، وأن حظ العامل من عمله نيته من خير أو شر - وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء - ذكر بعد ذلك مثلا من الأمثال والأعمال التي صورتها واحدة ، ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف النيات ، وكأنه يقول : سائر الأعمال على حذو هذا المثال.

وأصل الهجرة : هجران بلد الشرك ، والانتقال منه إلى دار الإسلام ، كما كان المهاجرون قبل فتح مكة يهاجرون منها إلى مدينة النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد هاجر من هاجر منهم قبل ذلك إلى أرض الحبشة إلى النجاشي فأخبر - صلى الله عليه وسلم - أن هذه الهجرة تختلف باختلاف المقاصد والنيات بها ، فمن هاجر إلى دار الإسلام حبّاً لله ورسوله ، ورغبة في تعلم دين الإسلام وإظهار دينه ، حيث كان يعجز عنه في دار الشرك - فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقّاً ، وكفاه شرفًا وفخرًا أن

حصل له ما نواه من هجرته إلى الله ورسوله، ولهذا المعنى اقتصر في جواب هذا الشرط على إعادته بلفظه ؛ لأن حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة ، ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام ليطلب دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها في دار الإسلام ، فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك ، فالأول تاجر ، والثاني خاطب، وليس بواحد منهما مهاجر.

وفي قوله: ﴿إلى ما هاجر إليه﴾ تحقير لما طلبه من أمر الدنيا ، واستهانة به ، حيث لم يذكر بلفظه.

وأيضا إن الهجرة إلى الله ورسوله واحدة ، فلا تعدد فيها ، فلذلك أعاد الجواب فيها بلفظ الشرط ، والهجرة لأمور الدنيا لا تنحصر : فقد يهاجر الإنسان لطلب دنيا مباحة تارة ، ومحرمة تارة ، وأفراد ما يقصد بالهجرة من أمور الدنيا لا تنحصر، فلذلك قال (فهجرته إلى ما هاجر إليه) يعني كائنا ما كان ، وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾الممتحنة -١٠ قال: كانت المرأة إذا أتت النبي - صلى الله عليه وسلم-حلفها بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما

خرجت إلا حبّاً لله ورسوله)[1]

وقد روى وكيع في كتابه عن الأعمش ، عن شقيق - هو أبو وائل - قال : خطب أعرابي من الحي امرأة يقال لها أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجته ، فكنا نسميه : مهاجر أم قيس[2]

قال : فقال عبد الله - يعني ابن مسعود - من هاجر يبتغي شيئًا فهو له[3]

وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى ، فصلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها كالجهاد والحج وغيرهما.

---

١) جامع العلوم والحكم ١٤/١ . وفي تفسير ابن كثير ٣٥١/٤ قال :عن عبد الله بن أبي أحمد قال: هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة ، فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكلماه فيها أن يردها إليهما ، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة ، فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين ، وأنزل الله آية الامتحان قال: سئل ابن عباس كيف كان امتحان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - النساء ؟ قال : كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض الى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حبّاً لله ولرسوله .

وذكر أن الذي كان حلفهن عن أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - له عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وقال مجاهد : فامتحنوهن ، فاسألوهن عما جاء بهن ، فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن ، أو سخطه ، أو غيره ، ولم يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن . وقال عكرمة : يقال لها ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ، وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا فرار من زوجك ؟ . فذلك قوله فامتحنوهن ، وقال قتادة : كان امتحانهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز ، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ؟ فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن ،

وقوله تعالى: ﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينا . وانظر تفسير الطبري٦٧/٢٨. ومعتصر المختصر ١٧٠/١ .

٢) فتح الباري ١٠/١ قال ابن حجر : وقصة مهاجر أم قيس رواها سعيد بن منصور بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : من هاجر يبتغي شيئا فإنما له ذلك ، هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس فكان يقال له مهاجر أم قيس ، ورواه الطبراني من طريق أخرى عن الأعمش بلفظ : كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها ، فكنا نسميه مهاجر أم قيس ، وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين لكن ليس فيه أن حديث الأعمال سيق بسبب ذلك ولم أر في شيء من الطرق ما يقتضي التصريح بذلك. وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ١٠١/٢ . جامع العلوم والحكم ١٤/١ . عون العبود ٢٠٤/٦ . شرح صحيح مسلم للنووي ٥٥/٣

المبحث الثامن : النية والجهاد في سبيل الله تعالى

الجهاد في سبيل الله تعالى من أفضل القرب ، بل إنه يأتي كما في الصحيحين بعد الإيمان بالله تعالى ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الأعمال أفضل ؟ قال: (إيمان بالله) قال : ثم ماذا ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله) قال : ثم ماذا؟ قال: ﴿حج مبرور﴾[1]

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل ؟ قال: (لا تستطيعوا)[2] قال : فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: (لا تستطيعونه) وقال في الثالثة: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى)[3]

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما

---

١) صحيح البخاري ١٨/١ . صحيح مسلم٨٨/١.

٢) وفي رواية لا تستطيعونه ، والكل صحيح . انظر التعليق على الحديث في صحيح مسلم ١٤٩٨/٣ .

٣) صحيح مسلم ١٤٩٨/٣ .

وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ أنا أحياء في الجنة نرزق ؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب ؟ فقال الله سبحانه: ﴿ أنا أبلغهم عنكم ﴾ قال: فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾ إلى آخر الآية [1]

وقد بين النبي – صلى الله عليه وسلم – أن ترك الجهاد سبب في الذل ، فعن ابن عمر – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: (إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) [2]

وعن يزيد بن أبي حبيب ، عن أسلم أبي عمران قال : غزونا القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد ، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه لا إله إلا الله ، يلقي بيديه إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : سبحان الله ، أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه ، وأظهر دينه ، قلنا : هلم نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله –

---

1) سنن أبي داود ٣/١٥سكت عنه. مسند الإمام أحمد ١/٢٦٥ المستدرك للحاكم ٢/٩٧ الأحاديث المختارة ١٠/٣٤٩ . سنن البيهقي الكبرى ٩/١٦٣ .

2) سنن أبي داود ٣/٢٧٤سكت عنه. سنن البيهقي الكبرى ٥/٣١٦ . فيض القدير ١/٣١٤وضعفه . عون المعبود ٩/٢٤٢ .

عز وجل (وأنفقوا في سبيل الله) الآية ، والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، فلم يزل أبو أيوب مجاهداً في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية ، فقبره هناك.

فأخبرنا أبو أيوب : أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله ، وأن الآية نزلت في ذلك ،

وروي مثله عن حذيفة والحسن وقتادة ومجاهد والضحاك.

قلت [1]: وروى الترمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران هذا فقال :

كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا إلينا صفا عظيمًا من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله يلقى بيديه إلى التهلكة ، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله - صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر

١) القائل القرطبي .

ناصـروه، فلو أقـمنا في أمـوالنا فـأصلحنا مـا ضـاع منهـا ، فأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم ، يرد علينا ما قلنا (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة (فكانت التهلكة الإقامـةَ على الأمـوال وإصـلاحَهـا وترْكَنا الغـزو ، فـمـا زال أبو أيوب شـاخصًا في سـبيل الله ، حتى دفن بأرض الروم

قـال أبو عـيسى : هذا حـديث حسن صـحيح غـريب اهـ.[1].

ولما كان الجهاد في سـبيل الله تعالى بهذه المثابة فإنه لابد أن يكون خـالصًـا لله تعـالى ، ولذلك كـان النبي صلى الله عليـه وسلم يحذر أمتـه من أن يكون هـذا الجـهاد لغيـر الله تعالى ، فقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن اخـتـلاف الناس في الجـهـاد ، ومـا يقـصـد به من الـرياء وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك ، أيٌّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سـبيل الله) فخـرج بهـذا كل مـا سـألوه عنه من المقـاصـد الدنيوية.

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن أعرابيا أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل

---

١) سنن الترمذي ٢١٣/٥ . صحيح ابن حبان ٩/١١ . تفسير القرطبي ٣٦١/٢-٣٦٢

ليرى مكانه ، فمن قاتل في سبيل الله ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)

وفي رواية لمسلم : سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ فذكر الحديث.

وفي رواية له أيضًا (الرجل يقاتل غضبًا ، ويقاتل حمية)[١] .

وخرج النسائي من حديث أبي أمامة قال : جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم : فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– (لا شيء) ثم قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا ، وابتغى به وجهه)[٢]

وعن أبي هريرة ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، رجل يريد الجهاد ، وهو يريد عرضًا من عرض الدنيا ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا أجر له ، فأعاد عليه ثلاثًا ، والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: ﴿ لا أجر له﴾[٣]

---

١) صحيح البخاري ٥٨/١ . ١٣٤/٣ .صحيح مسلم ١٥١٢/٣. ١٥١٣/٣ . صحيح ابن حبان ٤٩٣/١٠ . سنن الترمذي ١٧٩/٤ . سنن أبي داود ١٤/٣ سنن النسائي (المجتبى) ٦/ ٣٣ . سنن ابن ماجه ٩٣١/٢. مسند الإمام أحمد ٤٠١/٤ .

٢) سنن النسائي ١٦/٣ . سبل السلام ٤٤/٤ قال : رواه أبو داود والنسائي عن أبي أمامة بإسناد جيد اهـ.

٣) صحيح ابن حبان ٤٩٤/١٠ . المستدرك للحاكم ٩٤/٢ . موارد الضمآن ٣٨٦/١ . سنن البيهقي الكبرى ١٦٩/٩ . سنن أبي داود ١٤/٣ .

المبحث التاسع : النية وتعلم العلم وتعليمه:

لاشك أن طلب العلم من الأمــور التي حث عليــهــا الإســلام ، ســواء كـان ذلك في القـرآن الكريم أم في السنة النبوية المطهرة ، ولما كان العلم بهذه المكانة المرموقة ، وكان النـاس يتـفـاضلون بالعلم ودرجــاته ، ولهم به منـزلة عند النـاس ؛ لذلك حض الإســلام العلمـاء أن يكون علمـهم لله تعالى، وحذرهم من أن يجعلوه سُلّمًا لنيل الدنيا وحطامها .

وأول العلوم وأعلاها وأهمها وأولاها كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) الذي قال عنه الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره : الذي أعجزت الفصحاء معارضته ، وأعيت الألباء مناقضته ، وأخرست البلغاء مشاكلته ، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، جَعل أمثاله عبرًا لمن تدبرها، وأوامره هدى لمن استبصرها ، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفـرق فـيـه بين الحــلال والحــرام ، وكــرر فـيـه المواعظ والقصص للإفهام ، وضرب فيه الأمثال ، وقص فيه غيب الأخبار ، فقال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ٣٨- الأنعام . خاطب به أوليـاءه ففـهـموا ، وبين لهم فيـه مراده فعلموا، فقَرَأَةُ القرآن حملة سر الله المكنون ، وحَفظة علمه المخزون ، وخلفاء أنبيائه وأمناؤه ، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (إن لله أهلين منا ، قـالوا : يا رســول الله من هم ؟ قـال:

(هم أهل القرآن أهل الله وخاصته) [1]

فما أحق من عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه ، ويتذكر ما شرح له فيه ، ويخشى الله ويتقيه ، ويراقبه ويستحييه ، فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل ، وصار شهيدًا في القيامة على من خالف من أهل الملل ، قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ ١٤٣- البقرة .

ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله ، أوكد منها على من قصر عنه وجَهله ، ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع ، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ، وارتكب من المآثم قبيحًا ، ومن الجرائم فضوحًا ، كان القرآن حجة عليه ، وخصمًا لديه ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (القرآن حجة لك أو عليك) [2]

فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه ، أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبر حقائق عبارته ، ويتفهمَ عجائبه ، ويتبين غرائبَه ، قال الله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ ٢٩- ص. وقال الله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ ٨٢- النساء.

---

١) المستدرك للحاكم ٧٤٣/١ . سنن البيهقي الكبرى ١٧/٥ . سنن ابن ماجه ٧٨/١ . مصباح الزجاجة ٢٩/١عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (إن لله أهلين من الناس) قالوا : يارسول الله من هم ؟ قال: (هم أهل القرآن ، أهل الله وخاصته) هذا إسناد صحيح رجاله موثقون

٢) تفسير القرطبي ج١ص٢. جامع العلوم والحكم ٣٤٣/١ .

جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته ، ويتدبره حق تدبره، ويقوم بقسطه ، ويوفي بشرطه ، ولا يلتمس الهدى في غيره ، وهدانا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطعة الباهرة ، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة [1]

وعن كثير بن قيس قال : كنت جالسًا عند أبي الدرداء في مسجد دمشق ، فأتاه رجل فقال : يا أبا الدرداء أتيتك من المدينة ، مدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : فما جاء بك تجارة ؟ قال : لا ، قال : ولا بِكَ غيره ؟ قال : لا ، قال : فإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: (من سلك طريقا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له مَن في السماء والأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد ، كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) [2]

---

١) مقدمة تفسير القرطبي ١/١-٢ .

٢) صحيح البخاري ٣٧/١ . صحيح ابن حبان ٢٩٠/١ . سنن الترمذي ٤٨/٥ . سنن أبي داود ٣١٧/٣ . سنن ابن ماجه ٨١/١ .

وكان معاوية بن أبي سفيان يحدث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) [1]

خرج مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت القرآن فيك ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسَّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : فما عملت فيها ؟ فقال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال

١) صحيح مسلم ٢ / ٧١٩ عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمعت معاوية ابن أبي سفيان وهو يخطب يقول إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ويعطي الله) صحيح البخاري ١/ ٣٩.

هو جواد ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)[1]

وفي الحديث أن معاوية - رضي الله عنه - لما بلغه هذا الحديث بكى حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله ، قال الله - عز وجل: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ ١٥ - هود

وقد ورد الوعيد على من تعلم العلم لغير وجه الله.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم (من تعلم علمًا مما يبتغي به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة)[2] يعني ريحها .

ومن حديث كعب بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (من طلب العلم ليماري به السفهاء ، أو يجاري به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار)

وبمعناه من حديث جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ولفظ حديث جابر :

---

١) صحيح مسلم ١٥١٣/٣ . المستدرك للحاكم ١٨٩/١ . سنن البيهقي الكبرى ١٦٨/٩ . سنن النسائي (المجتبى)٢٣/٦ .

٢) صحيح ابن حبان ٢٧٩/١ . المستدرك للحاكم ١٦٠/١ . موارد الضمآن ٥١/١ . سنن الترمذي ٣٣/٥ . سنن أبي داود ٣٧٣/٣ . سنن ابن ماجه ٩٢/١

(لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا تُخَيَّروا بالمجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار) [1]

وقد ورد الوعيد على العمل لغير الله عمومًا ، فعن أبي ابن كعب - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال (بشر هذه الأمة بالثناء : بالعز والرفعة والدين والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب) [2]

---

١) سنن الترمذي ٣٢/٥ . سنن الدارمي ١١٦/١ . مجمع الزوائد للهيثمي ١٨٤/١ سنن ابن ماجه ٩٣/١ .المعجم الكبير للطبراني ١٠٠/١٩ . مصباح الزجاجة ٣٧/١عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا تخيروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار) هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم ، رواه ابن حبان في صحيحه من طريق ابن أبي مريم ، ورواه الحاكم في المستدرك من طريق ابن أبي مريم أيضا مرفوعًا ومرسلا .

٢) صحيح ابن حبان ١٣٢/٢. المستدرك للحاكم ٣٤٦/٤ . الأحاديث المختارة ٣٥٨/٣.موارد الضمآن ٦١٨/١. فيض القدير ٢٠١/٣ . مجمع الزوائد ج: ١٠ ص: ٢٢٠ عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم (بشر هذه الأمة بالسناء والتمكين في الأرض - وهو يشك في الثالثة - قال: (فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب) رواه أحمد وابنه من طرق ورجال أحمد رجال الصحيح .

المبحث العاشر: أقسام العمل بنيةٍ لغير الله تعالى

في جامع العلوم والحكم قال : واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياءً محضًا ، بحيث لا يراد به سوى مرئيات المخلوقين لغرض دنيوي ، كحال المنافقين في صلاتهم ، قال الله - عز وجل: ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس﴾ ١٤٢ - النساء

وقال تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون﴾ ٧. -الماعون.

وكذلك وصف الله تعالى الكفار بالرياء المحض في قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس﴾ ٤٧ - الأنفال.

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر في الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة ، والتي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء ، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضًا وحبوطه.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (يقول الله - تبارك وتعالى - أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه

غيري تركته وشركه) وخرجه ابن ماجه ولفظه (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك)[1]

وعن شـــداد بن أوس عن النبي - صلى الله عليـــه وسلم- قـال (من صلى يرائي فـقـد أشـرك ، ومن صـام يرائي فقـد أشـرك ، ومن تصدق يرائي فـقـد أشـرك ، فإن الله - عـز وجل - يقـول : أنا خـيـر قـسـيم لمن أشـرك بي شيئًا، فإن جدة عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني)[2]

---

١) صحيح مسلم ٤/٢٢٨٤ . صحيح ابن خزيمة ٢/٦٧ . سنن ابن ماجه ٢/١٤٠٥ . شرح صحيح مسلم للنووي ١١٥/١٨ . فيض القدير ٤/٤٨٣ .

٢) تفسير ابن كثير ٣/١٠٩-١١٠. حدثناعبد الحميد يعني ابن بهرام ، قال : قال شهر بن حوشب : قال عبدالرحمن بن غنم : لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة بن الصامت ، فأخذ يميني بشماله ، وشمال أبي الدرداء بيمينه ، فخرج يمشي بيننا ونحن نتناجى ، والله أعلم بما نتناجى به ، فقال عبادة بن الصامت : إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين - يعني من وسط قراء القرآن على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - فأعاده وأبدأه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، ونزله عند منازله - لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت ، قال : فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس - رضي الله عنه - وعوف بن مالك فجلسا إلينا ، فقال شداد : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - يقول: (من الشهوة الخفية والشرك) فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء : اللهم غفرًا ألم يكن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - قد حدثنا (أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب ؟) أما الشهوات الخفية فقد عرفتموها : هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذي تخوفنا ياشداد ؟ فقال شداد : أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلي لرجل ، أو يصوم لرجل ، أو يتصدق أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم والله إن من صلى لرجل ، أو صام أو تصدق له لقد أشرك، فقال شداد : فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ﴿ من صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك ﴾ قال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعمد الله إلى ما أبتغي به وجهه من ذلك العمل كله ، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به ، فقال شداد عند ذلك : فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ﴿ إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك : بين وأجب. ، من أشرك: بين وأجب . شيئًا فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به ، أنا عنه غني ﴾ طريق أخرى لبعضه قال الإمام أحمد (٤١٢٣) حدثنا زيد بن الحباب حدثني عبد الواحد بن زياد أخبرنا عبادة بن نسي عن شداد ابن أوس - رضي الله عنه - أنه بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : شيء سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأبكاني : سمعت رسول الله يقول: ﴿ أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية ﴾ قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال: ﴿ نعم أما إنهم لا يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا ولا وثنًا ، ولكن يراؤن بأعمالهم _ والشهوة الخفية : أن يصبح أحدهم صائمًا فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ﴾ إهـ . . مسند البزار ٨/٤٠٧ : وهذا الحديث بهذا اللفظ لا نعلم يرويه إلا شداد بن أوس ولا نعلم له طريقا إلا هذا الطريق الذي ذكرناه وعبد الحميد بن بهرام قد روى عنه جماعة من أهل العلم إهـ. الكامل في الضعفاء ٤/٢٩ ضعف شهر بن حوشب الراوي عن ابن غنم إهـ لكن في مجمع الزوائد ١٠/٢٢١ قال : وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات . المعجم الكبير للطبراني ٧/٢٨١ . جامع العلوم والحكم ١/١٦ .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة - وكان من الصحابة - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله-عز وجل-فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) [1]

وعن الضحاك بن قيس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (إن الله - عز وجل - يقول : أنا خير شريك، فمن أشرك معي شريكًا فهو لشريكه ، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله - عز وجل - فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أخلص له ، ولا تقولوا هذا لله والرحم ، فإنها للرحم وليس لله منها شيء، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء) [2]

وعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - أن رجلا أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله ، أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (لا شيء له) فأعادها عليه ثلاث مرات ، يقول له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

---

١) سنن الترمذي ٣١٤/٥ وحسنه . صحيح ابن حبان ١٣١/٥ . مسند الإمام أحمد ٤٦٦/٣ . المعجم الكبير٣٠٥/٢٢ . مجمع الزوائد ٢٢١/١٠ .موارد الضمآن ٤١٨/١ . سنن ابن ماجه ١٤٠٦/٢

٢) مجمع الزوائد٢٢١/١٠ : رواه البزار عن شيخه إبراهيم بن محشر ، وثقه ابن حبان وغيره ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح . الأحاديث المختارة ٩٠/٨ . سنن الدارقطني ٥١/١ . سنن البيهقي الكبرى ٢٩٠/٧ . مصنف ابن أبي شيبة ١٢٠/٧ .

(لا شيء له) ثم قال: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا ، وابتغى به وجهه) [1]

وخرج الحاكم من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رجل : يا رسول الله إني أقف الموقف أريد به وجه الله ، وأريد أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شيئًا حتى نزلت ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ ١١٠ الكهف [2] .

ومن يروى عنه هذا المعنى – أن العمل إذا خالطه شيء من الرياء كان باطلا – طائفة من السلف : منهم عبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، والحسن ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم.

قال ابن رجب : ولا نعرف عن السلف في هذا خلافًا، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين.

فإن خالط نية الجهاد مثل نية غير الرياء : مثل أخذه أجرة للخدمة ، أو أخذ شيء من الغنيمة ، أو التجارة ، نقص بذلك أجر جهاده ، ولم يبطل بالكلية [3] .

---

١) فيض القدير ٢٧٥/٢ عن أبي أمامة قال قلت : يا رسول الله ، أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال: (لا شيء له) فأعادها ثلاثا يقول: (لا شيء له) ثم ذكره قال العلاء : والحديث صحيح صححه الحاكم ، وقال المنذري إسناده جيد ، وقال الحافظ العراقي حسن ، وقال ابن حجر جيد اهـ. جامع العلوم والحكم ١٥/١ . سنن البيهقي الكبرى ١٨/٢ . سنن النسائي (المجتبى) ٢٥/٦. فتح الباري لابن حجر ٢٨/٦ . فيض القدير ٦٧١/٥ . تحفة الأحوذي للمباركفوري ٣٢١/٥.

٢) المستدرك للحاكم ١٢٢/٢ هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه اهـ. ٢٦٦/٤ نقل عن طاووس حديثا مرسلا . شعب الإيمان ٥/, ٤٣١

٣) جامع العلوم والحكم ٣٦/١-٣٧ .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم ، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم أجورهم).(١)

وقد ذكرنا فيما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضًا من الدنيا أنه لا أجر له ، وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا .

وقال الإمام أحمد : التاجر والمستأجر والمكاري أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزواتهم ، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

وقال أيضًا - في من يأخذ جعلا على الجهاد - إذا لم يخرج إلا لأجل الدراهم ، فلا بأس أن يأخذ ، كأنه خرج لدَينه ، فإن أعطي شيئا أخذه ،

وكذا روي عن عبد الله بن عمرو قال : إذا جمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقًا فلا بأس بذلك ، وأما إن أحدكم إن أعطي درهمًا غزا ، وإن منع درهمًا مكث ، فلا خير في ذلك.

وكذا قال الأوزاعي : إذا كانت نية الغازي على الغزو فلا أرى بأسًا.

١) صحيح مسلم ١٥١٤/٣ و١٥١٥. المستدرك للحاكم ٨٧/٢ . سنن أبي داود ٨/٣ سنن البيهقي الكبرى ١٦٩/٩ . سنن ابن ماجه ٩٣١/٢ . مسند الإمام أحمد ١٦٩/٢ الترغيب والترهيب للمنذري ١٩٦/٢ . فتح الباري لابن حجر ٨/٦ .

وهكذا يقال في من أخذ شيئا في الحج ليحج به ، إما عن نفسه، أو عن غيره.

وقد روي عن مجاهد أنه قال - في حج الحمال ، وحج الأجير ، وحج التاجر - هو تام لا ينقص من أجورهم شيء.

وهذا محمول على أن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب ،

وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأت عليه نية الرياء، فلا يضره ، فإن كان خاطرًا أو دفعه ، فلا يضره بغير خلاف ، فإن استرسل معه ، فهل يحبط عمله أو لا يضره ذلك ، ويجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري ، وأرجو أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازى بنيته الأولى ، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره [(١)]

ويستدل لهذا القول بما خرجه أبو داود في مراسيله عن عطاء الخراساني ، أن رجلا قال : يا رسول الله إن بني سلمة كلهم يقاتل : فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله ، فأيهم الشهيد ؟ قال: (كلهم إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا).

---

١) جامع العلوم والحكم ١/٣٧-٣٨

وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة والصيام والحج ، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر ، وإنفاق المال ، ونشر العلم ، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ، ويحتاج إلى تجديد نية.

وكذلك روي عن سليمان بن داود الهاشمي أنه قال : ربما أحدث بحديث ولي فيه نية ، فإذا أتيت على بعضه تغيرت نيتي ، فإذاً الحديث الواحد يحتاج إلى نيات .

ولا يرد على هذا الجهاد ، كما في مرسل عطاء الخراساني، فإن الجهاد يلزم بحضور الصف ، ولا يجوز تركه حينئذ، فيصير كالحج ، فأما إذا عمل العمل لله خالصًا، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، بفضل ورحمة ، واستبشر بذلك ، لم يضره ذلك .

وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير ، يحمده الناس عليه ، فقال: (تلك عاجل بشرى المؤمن) [١]

وبهذا المعنى فسره الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه، وابن جرير الطبري ، وغيرهم [٢]

وكذلك الحديث الذي خرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلا قال : يا

١) صحيح مسلم ٢٠٣٤/٤ صحيح ابن حبان ٨٧/٢ . مسند الإمام أحمد ١٥٦/٥ .

٢) جامع العلوم والحكم ٤٠/١ .

رسول الله ، الرجل يعمل فيسره ، فإذا اطلع عليه أعجبه ؟ فقال: (له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية).[1]

المبحث الحادي عشر : سبب عقوبة أصحاب الجنة .؟

يتساءل المرء عن أصحاب الجنة لم عاقبهم الله تعالى وهم لم يعملوا منكرًا إنما نووا ذلك فقط .

وللجواب عن هذا نقول :

لم يقع من أصحاب الجنة النية فقط ، وإنما وقع منهم العزم على منع الفقراء حقهم ثم بدؤوا التنفيذ فعاقبهم الله تعالى على ذلك ، ومن هنا لابد من بيان معنى النية والعزم والهم وما شاكلهما .

قال القرافي : في كتابه الأمنية في إدراك النية :

إن هذه الإرادة متنوعة إلى العزم ، والهم ، والنية ، والشهوة ، والقصد ، والاختيار ، والقضاء ، والقدر ، والعناية ، والمشيئة ، فهي عشرة ألفاظ اهـ.[2]

ونبين الفرق بين النية وما يرادفها من الألفاظ ، ثم نفصل القول في العزم ، في خمسة مطالب فنقول:

---

١) سنن الترمذي ٥٩٤/٤ حسنه وقال : قال أبو عيسى : وقد فسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقال : إذا أطلع عليه فأعجبه فإنما معناه أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير ؛ لقول النبي – صلى الله عليه وسلم – (أنتم شهداء الله في الأرض) فيعجبه ثناء الناس عليه لهذا لما يرجو بثناء الناس عليه فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ليكرم على ذلك ويعظم عليه فهذا رياء ، وقال بعض أهل العلم : إذا أطلع عليه فأعجبه رجاء أن يعمل بعمله فيكون له مثل أجورهم فهذا له مذهب أيضا اهـ. صحيح ابن حبان ٩٩/٢ . تفسير ابن كثير ٥٥٦/٤ . موارد الضمآن ١٧١/١. جامع العلوم والحكم ٤٠/١ .

٢) ص,٧

المطلب الأول : الفرق بين العزم والنية :

إن العزم ، هو إرادة يقطع بها المريد رويته في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه ، ويختص بإرادة المريد لفعل نفسه ، لأنه لا يجوز أن يعزم على فعل الغير [1]

وأما النية فهي إرادة متقدمة للفعل بأوقات ، من قولك انتوى إذا بعد ، والنوى البعد ، والنية البعد كذلك ، فسميت بها الإرادة التي بعد ما بينها وبين مرادها ، ولا يفيد قطع الروية في الإقدام على الفعل ، والعزم يكون متقدما للمعزوم عليه بأوقات وبوقت [2]

وفي شرح سنن ابن ماجه١/٢٨٥ ما حاصله : ما يقع في النفس من قصد المعصية على خمس مراتب :

الأولى : الهاجس : وهو ما يلقى فيها ، ثم جريانه فيها، وهو الخاطر ، ثم حديث النفس وهو ما يقع فيها من التردد هل يفعل أَوْلا ، ثم الهم : وهو ترجيح قصد الفعل ، ثم العزم : وهو قوة ذلك القصد والجزم به.

فالهاجس لا يواخذ به إجماعا لأنه ليس من فعله [3]

---

١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص١٠١.

٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠١.

٣) شرح سنن ابن ماجه للسيوطي ، وعبد الغني النابلسي ، وفخر الحسن الدهلوي ص٢٨٥.

المطلب الثاني : الفرق بين العزم والهم :

إن العـزم : هو مـا تقـدم ، والهم : هـو الفكر فـي إزالة المكروه ، واجتلاب المحبوب [١]

(قلت) فـعلى هذا فـالهم يكون في أول الخـاطر ، ومـا يأتي يكون الهم فيه آخر الأمر.

ومن الأول قـول أبي حـاتم عند حديث ابن عـباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : قال (إن الله كـتب الحـسنـات والسـيـئـات ، ثم بين ذلك ، فـمن هم بحسنة ، فلم يعملها ، كتبَها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبَها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة) متفق عليه [٢] .

قـال أبو حـاتم رضي الله عنه : أراد به إذا عـزم ، فـسمى العـزم هنا همّـاً ؛ لأن العـزم نهـاية الهم ، والعـرب فـي لغتهـا تطلق اسم البداءة على النهاية ، واسم النهاية على البداءة [٣]

وقد يكون الهم آخـر العزيمة عند مواقعة الفعل ، قال الشاعر:

---

١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠٤.

٢) صحيح البخاري انظر فتح الباري ١١/ ٣٢٣ رقم (٦٤٩١) واللفظ له ، ومسلم ١١٨/١ رقم (٢٠٧-١٣١) و١٤٦/١ رقم (٢٥٩-١٦) من حديث الإسراء الطويل ، ومسند الإمام أحمد ٢٧٩/١ .وصحيح ابن حبان ٢/ ١٠٦. وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ١٢٥/٣.

٣) صحيح ابن حبان ١٠٦،/٢.

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

ويقال : هم الشحم إذا أذيب ، وذلك أن ذوبان الشحم آخر أحواله ،

وقيل : الهم تعلق الخاطر بشيء له قدرة في الشدة ، والمهمات الشدائد ، وأصل الكلمة الاستقصاء ، ومنه هم الشحم إذا أذابه ، وهم المرض إذا هبط [1]

المطلب الثالث : الفرق بين العزم والإزماع :

إن العزم يكون في كل وقت يختص به الإنسان، والإزماع يختص بالسفر، يقال أزمعت السفر ، قال الشاعر

أزمعت من آل ليلى ابتكارا ....

ولا يقال: أزمعت الأكل والشرب كما تقول: عزمت على ذلك ، والإزماع يتعدى بعلى ، فالفرق بينهما ظاهر [2]

وقال امرئ القيس:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل إن كنت قد أزمعت صرمي فاجملي [3]

وقال أحيحة بن الجلاح:

وما تدري وإن أزمعت أمرًا بأي الأرض يدركك المقيل [4]

١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠٣-١٠٤.

٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠٢.

٣) تأريخ دمشق لابن عساكر ٥٣/٦٢.

٤) تأريخ دمشق لابن عساكر ٩٤/٣٤.

المطلب الرابع : الفرق بين العزم والحزم :

قال النقاش : العزم والحزم واحد ، والحاء مبدلة من العين، قال ابن عطية : وهذا خطأ ، فالحزم جودة النظر في الأمر ، وتنقيحه ، والحذر من الخطأ فيه ، والعزم : قصد الإمضاء ، والله تعالى يقول: (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت) فالمشاورة وما كان في معناها ، هو الحزم ، والعرب تقول: قد أحزم لو أعزم [(١)]

المطلب الخامس : تعريف العزم :

وإليك ما وعدنا من تعريف العزم لأننا نقول: بأن أصحاب الجنة لم يكن منهم مجرد الهم والنية ، وإنما كان منهم العزم المؤكد على الفعل والبدء في التنفيذ لذا نقول: عرف العزم بتعريفات مختلفة : منها اللغوية ، ومنها ما هو في اصطلاح المفسرين ، ومنها ما هو في اصطلاح المحدثين ، وإليك التفصيل:

١- تعريف العزم في اللغة :

قال ابن فارس في المقاييس : قال الخليل : العزم : ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله ، أي متيقنه.

ويقال : ما لفلان عزيمة ، أي ما يعزم عليه ، كأنه لا يمكنه أن يصرم الأمر ، بل يختلط فيه ويتردد اهـ . [(٢)]

---

١) تفسير القرطبي ٢٥٢/٤. انظر مجمع الأمثال ١٠٤/٢: وفيه لو أحزم فقد اعزم ، ومعناه: إن عزمت الرأي فأمضيته فأنا حازم اهـ .

٢) المقاييس في اللغة لابن فارس ص٧٧٠.